"إضطراب الفكر الدينى فى أوروبا"

مظاهره .. وبواعثه .. وآثاره

بقلم

دكتــور

مرسى شعبان على السويدى

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة – بالمنوفية

لجنة التحكيم

أ.د/ حسن عبدالحميد حسن

أ.د/ محمود عبدالسميع شعلا

بسم الله الرحمن الرحيم

" إضطراب الفكر الدينى فى أوروبا
مظاهره - وبواعثه - وآثاره

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد ﷺ الصادق الوعد الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن سلك منهجهم إلى يوم الدين.

وبعد ،،

فإن هذا البحث الذى أقدمه وأسطره لقراء حولية « كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية » يستهدف بالدرجة الأولى بيان البواعث الحقيقية وراء النزعات الأوروبية ، والتيارات الفكرية المتباينة فى العصر الحديث ، حيث انبثقت العديد من المذاهب والتيارات الفكرية المعاصرة نتيجة لسيطرة الفكر الوضعى ومنه الفكر الأوربى على الشبيبة المسلمة ، وعلى السواد الأعظم من عالم المسلمين فى كافة الأقطار الإسلامية نتيجة انحرافهم وبُعدهم عن النور الإلهى الهادى إلى صراط الله المستقيم ، ولعل هذا كان من أهم البواعث لتقديم هذا الموضوع ، عسى أن نهتدى للحق ، ونميز الطيب من الخبيث ، ونفيق من سباتنا ، ونعود إلى رشدنا ، وتراثنا الإسلامى ، لتكون كلمة الله تعالى هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمشركون ومن على شاكلتهم ومنوالهم.

فأقول وبالله التوفيق :

اضطرب الفكر الوضعى - بمختلف مسمياته ، ومزاعمه وادعاءاته ، وتباين فيما بينه وبين غيره من شتى الأفكار الوضعية ومنه الفكر الأوربى « فى علم مقارنة الأديان » ، وفى نظرته لواقع الكون ، وكنه الحياة ، وذاتية الإنسان -

اضطراباً يظهر عجز المفاهيم البشرية عن أن تحيط بما تقنن من قوانين ونظم وما شاكل ذلك مما يسمى « منهاج حياة للإنسانية ».

وتباينت المدارك البشرية فيما بينها تبايناً يجلى عدم التوفيق فى تحديد المصطلحات وإظهار الذاتيات ، ووضوح الأهداف والغايات ، مما أوجد تصارعاً واضطراباً بين شتى الأفكار الوضعية من بيئة لأخرى ، بل وفى البيئة الواحدة ، ومن عصر لآخر ، ولعل الدافع لهذا التباين والاختلاف ناجم من معيار الفكر الإنسانى نفسه ، وضعف المصدر المعرفى لهذه الأفكار المتضاربة والمتصارعة ، ولو قلبت سجلات التاريخ ، وتأملت صفحات الواقع :

* ستجد صراعاً فكرياً فى مجال العقائد والدين والفلسفة.

* وستلمس تضارباً وأخطاءً فى ذاتية التاريخ وعلم الأجناس وكنه الحضارة الإنسانية.

* وسترى تشعباً وأزمة جلية فى اللغة والأدب والفن وغيرها فى العلوم العربية.

* وستقرأ أخطاءً وتبايناً فى مفاهيم الاجتماع والأخلاق والنفس والتربية وسائر العلوم الإنسانية.

* وستلاحظ تيارات فكرية متشعبة ، ومذاهب فكرية متنوعة.

ومنهج البحث العلمى فى هذه الأفكار الوضعية - رغم تنوع وتعدد مسمياتها - مضطرب فى المحاور الستة التالية :

- المحور الأول : ذاتية أو ماهية الفكر - أيا كان مسماه.

- المحور الثانى : ميلاد أو نشأة الفكر وبيان منشئه.

- المحور الثالث : معيار الفكر أو ميزانه أو المصدر الذى يستقى منه هذا الفكر.

- المحور الرابع : خصائص الفكر أو سماته التى تميزه عن غيره من سائر الأفكار.

- المحور الخامس: هدف الفكر أو غايته.

- المحور السادس: حيل أو أساليب الفكر للوصول لبغيته أو غايته.[1]

واختلاف الأفكار الوضعية فيما بينها في إجلاء هذه المحاور الستة رغم ما بينها من صراع يحاول كل فكر منها احتواء الآخر والسيطرة عليه بل محاولة القضاء عليه وسحق أتباعه. يدل دلالة قاطعة على سقوط هذه الأفكار وانهيارها في حلبة الصراع الفكري.

ولكي تتجلى الحقيقة العلمية للقارئ الكريم، أعني بالفكر الوضعي: كل ماهو من نتاج العقل البشري ومقتنناته، أياً كان مسمى هذا الفكر، فكل فكر من الأفكار الوضعية يرجع في غالب الأمر إلى واضعه ومقننه، وسمى ما شئت - قد يكون مسمى الفكر رأسماليا، أو شيوعياً، أو ماركسيا، أو وجوديا، أو بوذيا، أو كونفوشيوسيا ... وغيرها من مسميات ومبتدعات فكرية وضعية، وكذا ما يتعلق بزيف التعاليم اليهودية والنصرانية الوضعيتين على اعتبار أن يد البشر قد تدخلت وتلاعبت في نصوصهما الكتابية بالتحريف والتبديل، والتغيير والتعديل، والتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، والحذف والتلفيق، الأمر الذي جعلهما يدخلان في نطاق وعداد الفكر الوضعي لأنهما انحرافا وحادا عن وحي الله تعالى.

وعندما تظهر الغشاوة في عيون المفكرين، ويذهبون بعيداً عن مصدر النور الحق، والوحي الإلهي، سرعان ما تختلط الأمور، وتضطرب عليهم الحقائق المتعارف عليها، وإذا ما أغرق الإنسان بنفسه في ساحة الفكر الوضعي وبعد عن النور ومصدره، فإنه لاريب سيفقد التمييز بين الحق والباطل، والطيب الخبيث،

١- لمعرفة هذه المحاور الستة انظر (ذاتية الفكر الإسلامي وغايته) بحث مخطوط، د. مرسى السويدى، لم يأذن الله تعالى بنشره.

وتتشابه فى عينيه الألوان لأنه يعيش فى ظل فكر باطل ، وليل دامس ، وظلام حالك ، « وظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » [1] ، وصدق من قال : « إن الألوان تتشابه فى الظلام» ، واختلاف الفكر الوضعى فى الرأى ، وليد بُعده عن المصدر الإلهى وانحرافه عن المعيار الأساسى لموازين الفكر ، كما يُعد صاحب الألوان المتعددة عن النور فرآها كلها فى الظلام لوناً واحداً.

ولا ريب فى أن ظهور الضباب الكثيف ، والمختلط مع غيره ، يؤدى إلى اضطراب السبل ، وتعدد الحيل ، ويُوجد بلبلة وصراعاً ، ثم انحرافاً عن سواء السبيل فى الإدراك والفهم والسلوك ، ورغم ما بين الأفكار الوضعية جميعها من صراع فكرى حاد أحياناً ، وصراع دموى فى أكثر الأحايين ، إلا أنها اتفقت وأجمعت ، واتحدت وتألفت على توجيه الضربات القاسمة للإسلام رغبة فى القضاء عليه أو تحريفه وتشويهه أو إثارة الشبهات حوله.

ولما كان الفكر الأوربى جزءاً لا يتجزأ من الفكر الوضعى ، فإننى آثرت أن أقدم هذا الموضوع – اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا ، مظاهره ، وبواعثه وآثاره – لمن انخدعوا ببريق الحضارة الغربية ، وانساقوا انسياقاً أعمى لما تمليه عليهم النهضة الأوروبية ، لكى يظهر لهم – من خلال البحث – أن العمد والأسس التى قام عليها الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية واهى وباطل ، ولا يقوم على ساق ، وما بنى على باطل فهو باطل ، فضلا عن أن هذا الفكر سراب خادع ومخادع ، ويمثل البيئة التى ولد فيها ، وإطلاق نتائج هذه التجربة على كل الأمم والأديان وخاصة البيئة الإسلامية ، والدين الإسلامى فيه تجاوز كبير للحقيقة العلمية. [2]

١– سورة النور من الآية (٤٠) .

٢– انظر (من معطيات الثقافة الإسلامية ودورها فى نهضة أوروبا وحضارتها) ، د. مرسى شعبان السويدى، حولية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد الخامس عشر، ص ٣٣٥–٣٧٠ ، ١٩٩٥م.

وبيان هذا الموضوع يتجلى من خلال تفصيل العناصر التالية بعد إجمالها :

أولا: طبيعة المجتمع الأوروبى.

ثانيا: ملابسات أو مظاهر اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية.

ثالثا: أهم البواعث التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى البيئة الغربية.

رابعا: بيان الآثار التى ترتبت على هذا التخبط الفكرى فى العالم الأوروبى.

ولى مع كل عنصر من هذه العناصر وقفه لتوضيحه - حسب ما يسمح به المقال - فأقول وبالله التوفيق ،،

أولا: طبيعة المجتمع الأوروبي:

لا يحق للمجتمع الأوروبي - ومن نهج منوالهم من أبناء الشرق العربي - أن يتغنى بحضارته، أو يزهو بنهضته، وهي وليدة أفكار وثنية وضعية، ولمعرفة ذلك وجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية، والنهضة الإسلامية، روضعها وروحها، وفلسفة حياة هذه الأمم، وكيف نشأت؟، ولبيان هذه الطبيعة الأوروبية.

يقول أبو الحسن الندوي: « ليست الحضارة الغربية في القرن العشرين المسيحي وليدة هذه القرون المتأخرة التي تلت القرون المظلمة في أوروبا، أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين، فهي سليلة الحضارة اليونانية، والحضارة الرومانية، فقد خلفتهما في تراثهما السياسي والعقلي والمدني والديني والاجتماعي والعلمي، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما، بل انحدرت إليها في الدم، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع - حفظه لنا التاريخ - للعقلية الأوروبية، وأول حضارة - سجلها التاريخ - قامت على أساس الفلسفة الأوروبية تجلت فيها النفسية الأوروبية، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومانية تحمل روحا واحدة هي الروح الأوربية، وظلت الشعوب الأوروبية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها، حتى برزت بها في القرن التاسع عشر في ثوب براق يوهمك - بطلائه وزهو ألوانه - أنه جديد النسج، ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان »[1].

ولما كنا بصدد البحث والدراسة في انتقاد الحضارة الغربية، والنهضة الأوربية، وما شكلها من روح وطبع وفكر، وما واكبها من اضطراب فكري عام، وخاصة فيما يتعلق بالفكر الديني بصفة خاصة - موضوع البحث - فلكي نكون

١- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٧٥، ١٧٦.

متصفين فى الحكم على هذه العقلية الأوروبية ، فإنه يتسنى لنا أن نلقى بعض الضوء على ما اعترى الحضارتين اليونانية والرومانية من فكر ، لكن نتأكد من مدى تأثر العقلية الأوروبية ، بطابعهما وروحهما.

- **أما الحضارة اليونانية (الإغريقية)** فقد غلب عليها الطابع المادى فى كافة مناحى حياتها الفكرية والعلمية ، ويتجلى هذا الطابع واضحاً فيما اعتقدوه مهم (لا يؤمنون إلا بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس ، وقلة الدين والخشوع ، وشدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها ، والنزعة الوطنية) [1] ، وهذا الاعتقاد ينم فى مجمله كل ما يتصل بالأيديولوجية اليونانية وما سادها من علم وثقافة وفلسفة ودين.

وقد سلم العلماء الأوروبيون بغلبة المادية فى الحضارة الأوروبية ، ونوهوا بها فى كتبهم وبحوثهم العلمية ، ألقى العالم الألمانى الدكتور « هاس » ثلاث محاضرات فى جنيف عنوانها « ماهى المدنية الأوروبية ؟ » ، وملخص ما قاله : «المدنية اليونانية هى مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً متناسباً ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب وليس هذا إلا اعتدادا بالمحسوسات اعتداداً كبيرا ... وكان الدين خلواً من الروحانية المعنوية ، لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين ، أما اللون الروحى الذى يبدو فى تقاليد « إرمنس » وغيرها من التقاليد التى نسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات ، وصور للمعانى المجردة وتصورها فى أجسام وأشكال إلا رشحة من رشحات هذه المادية الطاغية فى الأمة اليونانية - وغيرها »[2].

١- المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٨٠ بتصرف ، ارجع إليه لمزيد من الاستفادة.

٢- نقلا من المرجع السابق ص ١٧٧ .

كما عنى العديد من مفكرى الغرب وعلماء أوروبا برقة الدين وقلة الخشوع والجد فى أعمال اليونان وكثرة اللهو والرقص والطرب فى حياتهم ، وسجلوها فى كتبهم ، ومن هؤلاء « ليكى » فقد قال فى كتابه : (إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة ، وكانوا يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء ، ولاريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم دينا من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده فى كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلة الخشية والخضوع ، فلم يكن اليونان يعظمون إلههم إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم ، وكانوا يكتفون فى تعظيمه وتمجيده برسوم عارية وتقاليد جارية)[1].

ومن ثم يظهر بجلاء أن طبيعة الحياة اليونانية وروحها فى الاعتقاد قد غلب عليها الطابع المادى الجارف ، فلم يكن اليونانيون خاشعين لله تعالى بل كانت عبادتهم وأعمالهم الدينية أجساداً بغير أرواح ، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم ، واهتموا بالحياة الدنيا وبالغوا فى قيمتها وزخرفها ، وولعوا بالفنون الجميلة ، ولهج أدباؤهم ومفكروهم بالحرية الشخصية التى لا تعرف قيدا ولا تقف عند حد تأثيرا سيئا فى أخلاق اليونان ومجتمعها ، فأدى إلى انتشار الفوضى الأخلاقية ، وحدثت ثورة على كل نظام ، وأصبح شعار الرجل الجمهورى (وهو كناية عن الرجل الحر والمتنور) الجرئ وراء الشهوات العاجلة ، وانتهاب المسرات والتهام الحياة التهام الجائع النهم.

– وأما عن مدى تأثير العقلية الأوربية بروح الحضارة الرومانية (الرومية) وطابعها فإنه يتسنى لنا بيان الإحاطة بطابع هذه الحضارة وروحها ، وعنهما يحدثنا أبو الحسن الندوى قائلا :

« لقد تأثرت الحضارة الرومانية والإغريقية ، وغلب طابع وروح اليونان على الرومان ولم يكن هذا الخضوع خاصا فى عالم التأليف والأدب فحسب، بل غلبت

١- (تاريخ أخلاق أوروبا) ، ٣٤٤ ، ٣٤٥.

المدنية الإغريقية المدنية الرومية فى الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع والعواطف والنزعات ، وفى كل ناحية من نواحى الحياة العامة ، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ، وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية ، والثقافة بل النفسية اليونانية – بطابعها وروحها وخصائصها – إلى الروم ، وجرت منهم الروح والدم، ولم يكن الروم – بطبيعتهم الأوروبية – يختلفون عن اليونان فى الخصائص كثيرا ، بل هناك شبه عظيم بين الأمتين ، إيمان بالمحسوس ، وغلو فى تقدير الحياة – الدنيا– ، وشك فى دين ، وضعف فى يقين ، واضطراب فى العقيدة ، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن ، زد على ذلك كله اعتداداً بالقوة ، واحتراماً زائداً لها يبلغ حد العبادة والتقديس » (١).

ومن يقرأ التاريخ الفكرى والسياسى للحضارة الرومية وخاصة فيما يتعلق بالحياة العقائدية سيظهر له بجلاء أن الفكر الدينى الغالب على هذه الحضارة فكراً وثنياً خرافيا يقتضى بطبيعته الحيرة والاضطراب وضعف الإيمان ، وكلما تقدموا وبهروا فى حياتهم العلمية ، وتنورت أفكارهم ازدادوا تهكماً به ، واستخفافاً منه ، وقضوا أن الآلهة لا دخل لهم فى السياسة وأمور الدنيا. (٢)

وفى هذا الصدد يحدثنا « سيسرو » قائلا : « لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتا معناها أن الآلهة لا دخل لهم فى أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة » (٣).

١– (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٨١.

٢– أليس هذا المبدأ هو شعار « العلمانية » الحديثة « لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة» وقد رد علماؤنا الأجلاء على هذه النزعة الفكرية ودحضوها أمثال د. محمد عمارة ، د. يوسف القرضاوى ، و د. يحيى هاشم فرغل وغيرهم.

٣– (تاريخ أخلاق أوروبا) ص ١٧٨.

ويقول الراهب « أغسطين » : « إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهم فى دور التمثيل »[1] ، وقد فقد الدين الرومانى سلطانه الروحى على معتنقيه ، وبردت العاطفة الدينية فى قلوب الناس حتى تجرأ الرومانيون على آلهتهم وأهانوها فى بعض الأحيان ، كما لم يكن للدين تأثير فى أخلاق الأمة الرومانية وسياستها ومجتمعها ، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ، ويراقب أخلاقهم ونزعاتهم ، ولم يكن ديناً عميقاً يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب بل كان تقليدا من التقاليد ، كانت السياسة تقتضى البقاء عليه ولو بالاسم والرسم.

وفى هذا الشأن يسجل العالم « ليكى » قائلا :

« إن الدين الرومى كان يعتمد أساساً على الأثرة ، ولم يكن يرمى إلا إلى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك أنه ظهر في رومية مئات من الأبطال والعظماء ولكن لم ينهض فيها زاهدا فى الدنيا عزوف عن ملذات الحياة، ولا نسمع مثالا فى تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين ولكنه مبنى على الوطنية »[2].

كما غلب على الحضارة الرومية دينا جديدا تدين به ، وشعارا تعرف به هو الروح الاستعمارية ، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن أسلافها الروميين وخلفتهم فيه.

وفى هذا الشأن يسجل العالم الألمانى المسلم « محمد أسد « فى كتابه النفيس قائلا : « إن الفكرة التى كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هى احتكار القوة لها ، واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومى فقط ، لم يكن

١- المرجع السابق ، ص ١٧٩.

٢- المرجع السابق ، ص ١٧٧.

رجالها والقائمون عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للرومى فقط ، إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة والحضارة ، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية ، إن الروم لم يدينوا بالدين جديا أبدا ، كانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم ، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم وتوحدهم ، فلم يكونوا يسمحون لآلهتهم بالتدخل فى حياتهم العملية. (١)

وفى نهاية دور الحضارة الرومية سال بحياة شعبها سيل الانحطاط الخلقى البهيمى ، وخاصة بحر الترف في العيش والبذخ فيضانا عظيما ، غاص الروم فيه إلى الأذقان ، وسالت فيه النظم الأخلاقية التى كان الروم معروفين فيها كالغناء واللهو والرقص مما أدى إلى تزعزع البناء الاجتماعى فى البيئة الرومية حتى كاد ينهدم ، وقد صوره العالم الأمريكى « درابو » مبينا تدهور الحياة الاجتماعية فى الحياة الأوربية قائلا :

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوى الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كان موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية

١- (الإسلام على مفترق الطرق) ص ٣٨ ، ٣٩.

حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالا ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة ، وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، وقد أدرك الأبطال الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شئ يستحق العبادة فهو القوة ، ... فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك، ولكنه كان طلاء خداعا كالذى تراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها)[1].

وها هنا كما يقول أبو الحسن الندوى حادثة جديرة بأن يسجلها التاريخ وينوه بها المؤرخون وهى إعتلاء النصرانية عرش رومة الوثنية وكان ذلك بجلوس قسطنطين الذى اعتنق النصرانية على عرش الأباطرة ٣٠٦م فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ، ونالت فجأة مالم تكن تحلم به من ملك عريض ، ودولة مترامية الأطراف ، وكلمة لا تعلوها كلمة. ولما كان قسطنطين قد توصل إلى ملكه على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التى أريقت فى الذب عنه والنصر له ، عرف لهم الجميل وبذل لهم وجهه ، ووطأ لهم أكنافه وقلدهم مفاتيح ملكه ، ولكن انتصار النصارى فى ساحة القتال أدى إلى هزيمتهم فى معترك الأديان ، وربحوا ملكاً عظيماً وخسروا ديناً - إلهياً - جليلا لأن الوثنية اليونانية والرومانية قد مسختا دين المسيح وأتباعه ، وكان أكثر مسخا له وتحريفا به هو قسطنطين حامى زمام النصرانية الوضعية ، ورافع لوائها ، فلم تستطع النصرانية الوضعية - بعد ما بلغت من القوة وتولية قسطنطين مقاليد الأمور وزمام الملك - أن تقتلع وتقطع دابر الوثنية وجرثومتها ، وكانت النتيجة أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه الوثنية والنصرانية سواء بسواء ، وأن هذا الامبراطور - الذى كان عبداً للدنيا - لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين

١- (الدين والعلم) للعالم الأمريكى درابر ص ٣١ ، نقلا من (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

-النصرانى والوثنى - أن يوحدهما ، ويؤلف بينهما ، ولم تستطع النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة - التى فقدت روحها وجمالها - أن تغير من سيرة الروم المنحطة ، وأن تبعث فيهم حياة دينية نقية طاهرة وابتدعت رهبانية كانت شرا على المدنية الأوروبية - بصفة خاصة - وعلى الإنسانية بصفة عامة . (١)

وهذا ما يدفعنا إلى بيان العنصر التالى الذى يبرز أهم الملابسات والمظاهر التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية - وإن كان ما سبق من موروثات فكرية سادت الحضارتين الإغريقية والرومية قد شكلت العقلية الأوروبية حضارياً ، وفكرياً ، ودينياً ، وعلمياً ، وعملياً يعتبر من أهم هذه المظاهر ، ويعد من الركائز الرئيسة التى أدت إلى الصراع الفكرى الدينى والاضطراب العام فى الحياة الفكرية التى غلبت على الطابع والروح الأوروبية.

١- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٨٤ - ١٨٦ بتصرف يسير.

ثانيا: أهم الملابسات والمظاهر التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى أوربا:

إن الفكر الأوروبى عاش فى ظل قرون همجية مظلمة، ووسط بيئة مضطربة، لم تتضح فيها معالم الدين الحق، كما ولد فى ساحة كانت مرتعاً خصباً لشتى الأفكار الوضعية المتنافرة، ورغم بزوغ فجر الإسلام، وظهور الدعوة الإسلامية إلا أنه لم يستقبل شعاع هذا النور الإلهى بالحيدة والنزاهة والإذعان بل استقبله على أنه فضلات أديان من العصور السحيقة، ومن ثم بدى اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية جلياً فى واقع الكون، وواقع الحياة، وواقع الإنسان نفسه، وتجلت أفكاره محيرة ومضطربة في كافة نظمه وتقنيناته التى وضعها منهجاً لحياته وواقعه، واضطربت مفاهيمه، واختلفت معاييره وموازينه، وتباينت أهدافه وغاياته، وتعددت حيله وأساليبه فى الوصول لبغيته وما يصبوا إليه، وأنى لفكر وضعى أن يعرف ربه وقد جهل كنه نفسه ؟!.

لقد بدا اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا فى تحديد ظاهرة التدين وذاتيته، وكانت « ظاهرة التدين فى سلوك الإنسان - الأوربى - ظاهرة محيرة لكتاب الغرب الذين اهتموا بالدراسات الدينية.

- فهذا (ماكس نوردوه) يرى : أن الشعور الدينى إحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين كما يجده أعلى الناس تفكيراً، وأعظمهم حدساً .... ويرى -أيضا - : أن الديانات ستبقى ما بقيت الإنسانية، وأنها ستتجاوب مع درجة الثقافة العقلية التى تبلغها الجماعة.

- نرى اتجاها آخر يمثله فيلسوف فرنسى « فولتير » يفسر ظاهرة التدين بأنها : اختراع دهاة ماكرين من القساوسة والكهنة الذين وجدوا لفيفا من الحمقى والسخفاء يصدقونهم ويذعنون لخرافاتهم ».

- كما يمثله - أيضا - « جان جاك روسو » الذى يرى : أن ظاهرة التدين فى المجتمع نتيجة جشع الذين سبقوا فوضعوا أيديهم على مساحات الأرض الواسعة ثم خدعوا الجمهور بما افتعلوه من قانون أو نظام دين.

- هذا الاتجاه الأخير ماهو إلا امتداد للسفسطة اليونانية والرومانية والمصرية القديمة التى روجها السفسطائيون بفلسفتهم القائمة على التشكيك والمغالطات التى زينت فكرة : أن القوانين والديانات فى تصويرهم ماهى إلا ضرورة سياسية ماهرة تهدف إلى علاج أمراض المجتمع » [1].

ولم ينته القرن الثامن عشر حتى كان اتجاه « ماكس نوردوه » هو التصحيح للفكرة الخاطئة للسفسطائية القديمة ، واكتشفت حقائق دينية فى خارج المجتمعات الأوروبية تبين من مقارنتها أن التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث رغم تفاوت المجتمعات فى مدارج التمدن والرقى ودركات الهمجية والجاهلية.

- يقول « بارتلمى سانت هيلير » : هذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا ، ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ ، من أين جاءا ؟ ، من صنعهما ؟ ، من يديرهما ؟ ، كيف بدءا ، كيف ينتهيان ؟ ، ما الحياة ؟ ، ما الموت ؟ .... الخ ، هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة .

- ويقول « شاشا وان » مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر .. فإن عقلنا فى أوقات الهدوء والراحة والسكون - عظماء كنا أو متواضعين ، خيارا كنا أو أشرارا ، يعود إلى التأمل فى المسائل الأزلية.

- ويقول « هنرى برجسون » : لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير دين .

١- نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء) د. رؤوف شلبى ، ص ٤.

كما صارت هذه النزعة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » [١].

- ويقول « أرنست دينان » : « يمكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحى التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى » [٢].

- ويقول « بلونارك » : « الدين أهم ضرورات الإنسان ، وأنه من الممكن أن تجد مدنا بلا أسوار وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب ، ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد أو لا تمارس الصلاة » [٣].

*** حيرة علماء الغرب فى تفسير مظاهر التدين وعلله :**

وكما اضطرب كتاب الغرب فى ظاهرة التدين ، فقد حيرهم كذلك مظهر هذا التدين ، واشتطوا فى تفسير ظاهرة التدين بالسبب الدافع لها ، والباعث عليها.

فقد علل بعضهم ظاهرة التدين فى **عبادة الطبيعة** بأن الانسان الأول لم يكن يفهم دنياه التى يعيش فيها ، لقد كان الكثير من عالم الأرض والكون محجوبا عنه لا يقدر على تصور وجوده فاستشعر الخوف من الطبيعة ، ولما لم يستطع أن يعلل كثيرا من ظاهراتها المحيطة به اعتبرها ذات حياة مثله ، ثم شعر بأنها أشد منه قوة فكان طبيعيا أن يسترضيها حتى يحصل على المعونة منها أو تمنع أذاها عنه.

ومن ثم أخذ الإنسان الأول فى عبادة الطبيعة ومظاهرها ، ثم تنوع مظهر

١- المرجع السابق ص ٥.

٢- المرجع السابق ص ٦.

٣- نقلا من (أخطاء المنهج الغربى الوافد) للأستاذ أنور الجندى ص ٥٠.

المعبود من عالم الطبيعة ، فتارة تكون الشمس إذا كانت حياة الإنسان فى بلاد تستحب فيها أشعة الشمس ، وتارة يكون المعبود مسقط ماء أو بر كان إذا كان أحدهما ذا تأثير خاص فى حياة الناس الذين يعيشون فى محيطه ، وتارة يكون المعبود بقرة أو جاموسة أو حيوانا آخر إذا كان الحيوان بما يعول عليه فى بقاء حياة الإنسان .

وعلل البعض الآخر ظاهرة التدين فى عبادة الروح والأسلاف نتيجة عدم إدراك الإنسان الأول لمعنى الموت والحياة وظنهم أن الذى يموت سوف تعود روحه ، ولعل الرؤى والأحلام قد سيطرت على بعض الناس كتفسير لظاهرة التناسخ فعبدوا الأرواح لشيوع ظاهرة اعتقاد حياة الروح بعد فناء الجسد ، وعلى أساس هذه النظرية نشأت عبادة الأسلاف إذ أنها مؤسسة على الشعور بأن روح السلف تحوم حول الناس ، وتبعا لهذا نشأت فكرة انتقال الأرواح : دخول روح جسد ميت فى جسد من الأجساد المعبودة .

وعلل آخرون ظاهرة التدين فى عبادة النصب وفسروها بأنها خليط من عبادة الطبيعة وعبادة الأرواح ، غير أنها عبادة متوجهة إلى التشبيه بالإله أو بما يعتبر معبودا ، وقد يحمل هذا الشئ الشبيه من مكان إلى مكان على أنه طلسم، وكثيرا ما يسمى صنما ، وما الأصنام إلا نصبا « فتشية » (١).

وعلل قوم ظاهرة التدين فى عبادة كائن أعلى وعنهم كتب « جروف » قائلا: إن عبادة كائن أعلى مهيمن على كل شئ أمر متأخر الحدوث عادة ولكنها وجدت فى بعض الأحيان بين الناس الأولين ، وكانت فى مبدئها تتناول عبادة آلهة شتى ثم تحولت بالتدريج إلى التوحيد باستبعاد الآلهة الصغرى الأقل خطرا ،

١- الفيتشية : اعتقاد أن لكل مادة روح تحل بها وأن الاستحواذ على تلك المادة يمكن الإنسان من استخدام روحها والانتفاع بها ، نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا ..) ص ٩ هامش.

وظل هذا الاعتقاد يرقى وينقى شيئا فشيئا حتى كان أرقى أشكال الدين اليوم[1].

فى كتابه (العقلية البدائية) فهم يرون : أن البدائيين يهملون البحث عن الأسباب والعلل للظواهر الطبيعية ، ويرون أن القوى الغيبية هى التى تفعل كا ما يشاهدونه من بركان ورعد وبرق .. واضطراب المبشرون فى تفسير هذا المنطق للعقلية البدائية فبعضهم يرده إلى البلادة والغباء ، والبعض الآخر ينفى هذه البلادة ويرجعه إلى تحكم العادات والتقاليد السائدة فى مجتمعاتهم .[2]

*** اضطراب الفكر الدينى لدى العقلية الأوربية فى بيان مفهوم الدين:**

وقد نشأ هذا الاضطراب نتيجة الثقافة الدينية الموروثة عن الأمم السالفة : كالحضارة اليونانية والرومانية ، ولم تكن العقيدة فى هذه البيئات ذات وضوح سواء كان فيما يتعلق بالاعتقاد أو الشرح أو السلوك العام لأجناسهم ، كما كان مبعث هذه الاضطراب نتيجة المظاهر والملابسات التى سنبرزها من خلال عرضنا لهذا العنصر.

ومن هذه المباعث التى كان لها أثرا (محاكم التفتيش) والسلطة التى فرضتها الكنيسة على أتباعها بالحجر على الفكر أن يتجسس على المعرفة ليبحث ، وتولدت عن هذه السلطة رهبة نفسية صارت بحكم التقادم عادة دينية فلم يعد من السهل أن يعالج الأوربى مسألة فى الدين.

يقول « جروف » : « من الصعب أن يعالج الإنسان[3] موضوع الدين بطريقة علمية وذلك لما للدين من الحرمة والقداسة عند الناس فلا يكاد الكاتب

١- انظر (المجتمع ومشاكله) للكاتب جروف نقلا من المرجع المذكور ص ٦ -٨ .

٢- نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء) د. رؤوف شلبى ٣٢-٤٩ لمزيد من الاستفادة.

٣- يقصد الإنسان الأوروبى ، لأنه منهم ويكتب عن بيئتهم.

يحاول ذلك حتى يوصم بأنه ملحد أو هرطيق [1] ، مهما كان الباعث له على البحث ساميا خالصا .... والظاهر أن الدين من الأمور التى يقرها الإنسان من جهته إقرارا نهائيا فهو لا يطيق أن يدلى أحد من الناس برأى يخالف رأيه أو يعرض أى شرح أو تفسير يباين ما عرفه وألفه ويكاد أن يكون لكل فرد تفسيره الخاص ... وهناك اختلاف كثير فى الرأى حتى من حيث ما يجب أن يدرج تحت اسم الدين ، ومن ثم كان عندنا عدد من التعريفات لا حصر لها ، بل الواقع إنه يكاد يكون لكل كاتب عن الدين تعريف وتصور فى الموضوع يختلفان عما لسواه. [2]

ومما يعضد ويؤكد اضطراب العقلية الأوربية فى تحديدها لذاتية الدين ومفهومه ، ما استعرضه فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز لتعريفاتهم لمفهوم الدين فى كتابه القيم [3] ، فذكر أربعة عشر تعريفا لمشاهير كتاب الغرب ثم فندها ودحضها ، ثم علق قائلا : إن تعاريف علماء أوربا للدين بدت فى ثوب مهلل لأنها لم تلاحظ سوى الجانب السلبى ، وتجريد الدين من عنصره الروحى ، وأبعدوا الدين عن أخص صفاته وهو الألوهية والتدبير ، لقد تأثر الفكر الأوربى بمواريثه القديمة فأضفى على الدين حلة (الإتكيت) أو (البروتوكول) ليصير عادة اجتماعية مثل باقة الورد التى توضع على قبور الموتى أو لبس الثوب

١- الهرطقة : كلمة يونانية الأصل معناها (الرأى المستقل) أو (الاجتهاد الفردى) وقد استخدمتها الكنيسة بمعنى المذهب الخارج على المسيحية ، انظر (الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية) اسحق عبيد ص ٣٤ ، دار المعارف ١٩٧٢م.

وانظر (رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية) د. محمود محمد الحويرى ، هامش ٧٥ دار المعارف ١٩٨١م.

٢- (يا أهل الكتاب تعالوا ..) ص ، ٢٢ - ٢٤ بتصرف.

٣- (الدين) ص ٣٤ - ٥٤ ، ارجع إليه لمزيد من الاستفادة.

الأسود حدادا على عزيز رجل أو وضع الخاتم فى الأصبع للتمييز بين الأعزب والمتزوج وتظهر هذه الفكرة واضحة فى كلام « جروف » إذ يقول :

(لقد تقدم الدين والمدنية فى سبيل الرقى جنبا إلى جنب ، فالدين من هذه الوجهة يشابه غيره من الأوضاع الاجتماعية) ويقول أيضا : (الدين كغيره من الأوضاع الاجتماعية الأخرى ويدل على طور الرقى) [١].

*** اضطراب العقلية الأوربية فى نشأة الدين وتطوره:**

يحدثنا د. رؤف شلبى شارحا هذا الاضطراب فيقول :

أثرت الحياة الموروثة للمجتمعات الوثنية القديمة فى أوربا على العقلية الأوربية فأفسدت تفكيرها الدينى ، وقد أضفى ذلك الاضطراب نوعا آخر من الاضطرابات الفكرية حول تحديد نظرية منشأ الدين وتطوره ، وقد ورث الفكر الأوربى علم مقارنة الأديان عدة نظريات تفسر منشأ الدين وتطوره.

الأولى: أن مصدر الدين إنسانى على خلاف كبير فى الطرق التى يسلكها أصحاب هذه النظرية فى إثبات ذلك ، وهذه النظرية مع أصحابها ينكرون حقيقة الألوهية ، وسادت هذه النظرية أوروبا فى القرن التاسع عشر الميلادى تأثرا بمذهب التطور التقدمى الذى حاول تطبيقه على مقارنة الأديان كل من « سبنسر » و «تيلور» و « فريزر » و « دركايم » .

الثانية : أن مصدر الدين هو التجارب النفسية، ومن القائلين بهذه النظرية:

أ- أوجست ساباتير القائل : أن العقيدة تتولد فى الإنسان منذ نشأته على أثر شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته.

ب- هنرى برجسون القائل : أن العقيدة تقوم على عوامل نفسية تثيرها حياة الإنسان اليومية خاصة ما يتعلق بالقوانين الأدبية التى يفرضها

١- (المجتمع ومشاكله) نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا ...) ص ٣٦.

المجتمع ، وما يتعلق بأحداث المستقبل التى لا يمكن التنبؤ بها بصفة جازمة.

الثالثة : ترى أن الله هو مصدر الدين سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر، وقد تحمس لهذه النظرية (لانج وشريدر وبركلمان) وتبعا لهذا اختلف علماء مقارنة الأديان فى نظرية التطور الدينى ، كيف بدأ [1]. القائلون : بالفطرة ، والقائلون : بالتطور ، لا يسعهم الحديث عن دين منطقة بدائية ، فقد أعلن العلماء أنهم يجهلون تاريخها تماما فإذاما تدخل أحدهم فى تفسيرات لهذه الديانات فقد ناقض نفسه وأفنى بحثه فى عبث محكوم عليه مسبقا أنه غير علمى. [2]

ومن ثم بدت العقلية الأوربية المشتغلة بمقارنة الأديان بأنها مضطربة « لأنها ورثت ديانات وثنية لا غناء فيها للروح والفكر ، ولأنها تعصبت لمنهجية عقلها فأغلقت دائرة الفروض فزلت ، ولأنها غير حيادية فى منهج البحث فأفسدت عناصر القياس فخلطت بين الدين والصناعة والوحى والفن والممنوع والمقبول »[3].

وكان من آثار هذا الاضطراب الفكرى الذى غلب على العقلية الأوربية قبل أن تدخل المسيحية وتبعا للظروف التى عاشتها أوربا كان يوجد فيها مجموعة أديان قسمها بعضهم إلى ثمانية (دين أوجده الاجتهاد البشرى فقط ، دين قائم على الظنون ، دين قائم على الإلهام والشعور ، دين قائم على التحرى والتفكير، دين قائم على الترانيم والرقص ، دين قائم على سفك الدماء والاضطراب الروحى، دين قائم على الأصنام ، دين قائم على التحليق فى الفلسفة الغامضة

١- لمزيد من الاستفادة لشرحها أنظر (نشأة الدين) د. على سامى النشار ١٩٤٩م.

٢- (يا أهل الكتاب تعالوا ..) ص ٣٦ ، ٣٧ ، وللرد على هذه النظريات انظر (الدين) لعبدالله دراز.

٣- المرجع السابق ص ٤٤.

والفراسة) وآخر وهو « هارتمن » قسمها إلى خمسة أديان (دين التوحيد الكاذب كدين هنود أمريكا ، دين الفناء المطلق (البوذية) ، دين الدهرية وأشباههم (روما القديمة)، دين الزهد (البرهمية) ، دين الأوهام (الفرعونية)) ، وقسمها آخرون إلى أربعة أديان (عبادة الحيوانات المتعددة ، ودين المحبة والشياطين ، دين السحر والشعوذة ، دين عبادة الأشخاص) [١]. ولقد تأثرت العقلية الأوربية بهذه الأوهام قديما وحديثا مما أدى إلى اضطرابها حتى بعد دخول أوربا النصرانية وتأثر النصرانية - بعد تحريفها - للأديان الوضعية) [٢].

الأمر الذى يدفعنا إلى مظاهر هذا الاضطراب ، وأجملها فى النقاط التالية:

أولا : الصراع الفكرى بين اليهودية والنصرانية.

ثانيا : دخول " بولس " فى النصرانية .

ثالثا : دخول الامبراطور الرومانى " قسطنطين " فى النصرانية.

رابعا : تأثر النصرانية بالتصورات الوثنية والأساطير والموروثات القديمة للأمم السالفة عليها.

خامسا : سيطرة الكنيسة على الحياة الأوروبية.

سادسا : نظام الرهبنة الذى ابتدعه رجال الكهنوت.

سابعا : فساد رجال الدين (النصارى).

ثامنا : مسألة صكوك الغفران.

تاسعا : شدة النزاع بين البابوية والامبراطورية.

عاشرا : النزاع بين الكنيسة ورجال العلم.

ولى مع كل نقطة من هذه النقاط وقفة لتوضيحها ، فأقول وبالله التوفيق :

١- المرجع السابق ص ٤٤.

٢- أنظر (تأثر المسيحية بالأديان الوضعية) د. أحمد عجيبة رسالة العالمية مخطوط بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا.

من يدرس طبيعة المجتمع الأوروبى سيلمس بجلاء أن الأمم الأوروبية كانت تتسكع فى ظلام الجهل المطبق ، والأمية الفاشية ، والحروب الدامية ، ولم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم ، ولم تظهر على مسرحها الأندلس الإسلامية لتؤدى رسالتها العلمية والمدنية ، ولم تصهرها الحوادث ، فضلا عن أنها كانت بمعزل عن قافلة الحضارة الإنسانية ، بعيدة عنها ، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلا ، وكان فكرها الدينى بين ديانات وثنية شائية موروثة ، وبين نصرانية وليدة ، ولم تكن بذات رسالة فى الدين ، ولا بصاحبة راية فى السياسة.

وعن هذه الحياة العلمية والدينية والاجتماعية ، يحدثنا هـ ج. « ولز » قائلا:

« لم تكن فى أوروبا - من القرن الخامس إلى القرن العاشر الميلادى - أمارات الوحدة والنظام وأطبق عليها ليل حالك ، وكان هذا الليل ظلاماً وسواداً، قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضى عليها بالزوال » (١).

وهذا ما يؤكد أن الفكر الأوروبى قد عاش فى ظروف الهمجية المظلمة التى لم تتضح فيها أية معالم للحياة الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها ، وأن ثقافته الدينية كانت ثقافة موروثة عن الأمم السالفة ، ولم تكن عقيدة تلك الأمم السابقة واضحة لا فى الاعتقاد ولا فى الشرح ولا فى السلوك الإنسانى ، ومن ثم يظهر لنا - كما سبق بيانه - أن أولى مظاهر اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية الثقافة الدينية المتوارثة عن الأمم السالفة (اليونانية والرومانية والمصرية القديمة وغيرهم).

١- نقلا من (ماذا خسر العالم ...) ص ٤٤.

وتأتى الملابسات أو المظاهر التى أدت إلى هذا الاضطراب يكمن فى النقطة التالية :

*** الصراع الفكرى بين اليهود والنصارى:**

من المعلوم أن رسالات الوحى الإلهى ما جاءت إلا لتكون منهجا للحياة ، ومنها اليهودية فقد جاءت لتكون منهجاً لحياة بنى اسرائيل ، كذلك جاءت النصرانية لتكون المنهج المعدل لبنى إسرائيل ، ولكن اليهود لم يقبلوا رسالة السيد المسيح عليه السلام ، ولم يقبلوا منه التخفيف الذى جاءهم به من عند الله تعالى ، ومن ثم قاوموا المسيح عليه السلام وقاوموا دعوته ، ووقفوا ضد أتباعه وأشياعه ، وانتهى الأمر بهم إلى إغراء « بيلاطس » الحاكم الرومانى على أرض الشام يومئذ بمحاولة قتل المسيح عليه السلام وصلبه ، لولا أن الله تعالى رفعه إليه فى صورة لا تعلم كيفيتها ، وسارت الأمور بعد ذلك بين اليهود وأتباعهم ، والنصارى وأشياعهم سيرتها البائسة ، فبذرت بذور الحقد على اليهود فى نفوس الذين صاروا نصارى ، كما غرست بذور الكره فى نفوس اليهود على النصارى ، وانتهت بانفصال أتباع المسيح عليه السلام عن اليهود ، وانفصال النصرانية عن اليهودية ، ووقع الفصام النكد بينهما [1] .

ومن يقرأ التاريخ سيجد أن الصراع الفكرى قد اشتد أواره بين أتباعهما ، فضلا عن السلوك العام بين أشياعهما ، ولو سجلنا تصرفات اليهود مع النصارى وردود أفعال النصارى عليهم لطال بنا المقام [2] ، غير أننى أسطر بعضها ، لكى يظهر للقارئ الكريم آثار هذا الصراع ، فلقد عادى اليهود النصارى ونشأ العداء ضد أم السيد المسيح ، وضد المسيح ، وضد أتباعه وضد الشعوب النصرانية في

١- (المستقبل لهذا الدين) سيد قطب ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، بتصرف يسير.

٢- ولمزيد من الاستفادة انظر (اليهود) لأحمد شلبى ، (هداية الحيارى) لابن القيم .

كل زمان ومكان ، قذف ولعن ، واستغلال وابتزاز ، واثارة الفتن ، وحياكة الحيل والخيانات ، وإشعال نار الحروب ، واستغلال الأحوال والظروف ، وإشاعة الفسق والفجور ، وسفك الدماء ، وسرقة أقوات الشعوب والتطفل عليها ، وكان من نتيجة هذا السلوك رد فعل عنيف ، وصراع ضار مرير ، بل صراع دموى رهيب من جانب النصارى .

وتمثل الصراع الذى دار بين النصارى واليهود فى أمرين (صراع فكرى انحرف فيه النصارى عن اليهود ، وبعدوا كل البعد عن عقيدة وشريعة وأخلاق اليهود ، وتناقضوا معهم وأدخلوا فى دينهم ماليس منه ، وحذفوا منه ما كان فيه، وما قال اليهود شيئا إلا حاول النصارى نقضه وتغييره وتبديله ، وصراع دموى أذاق فيه النصارى اليهود شتى ألوان الاضطهاد والتعذيب [1] اشتركت فيه كل الأمم النصرانية ، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح النصارى بعضهم بعضا عليها).

وأسفر الصراع العقدى والفكرى والدموى بين كل من النصارى واليهود عن نتائج وآثار دمرت عقيدتهما وأفقدها عن تحريف وتبديل وتغيير كل من الطائفتين عقيدته وشعائره وأخلاقه كيدا وتذليلا بالجانب الآخر ، حتى انسخلوا من عقائدهم ، وأصبح كل منهما لا دين له ، وتفرعت عنهما مذاهب وطوائف وسياسات هدامة مزقت الإنسانية شر ممزق ، مما أوضع الإنسانى الأوروبى - بصفة خاصة - فى اضطراب فكره الدينى ، وتشتت فى شتى مناحى حياته.

وثالث مظاهر الاضطراب الفكر الدينى الذى انتاب أوروبا يتمثل فى :

١- انظر (اليهودية) د. أحمد شلبى ، ص ٢٣٠ ، و (هداية الحيارى) ، (دائرة معارف القرن العشرين) ، محمد فريد وجدى ، جـ١ ، ص ٨٥ ، ٢٨٦.

* دخول « بولس » في النصرانية :

« بولس » لم ير المسيح عليه السلام وإنما دخل النصرانية من الوثنية الرومانية ، وكان من نصيبه أن يتولى نشر النصرانية فى أوروبا مطعمة بما رسب فى تصوراته من الوثنية الرومانية والفلسفة الإغريقية ، وكانت هذه كارثة على الفكر الدينى النصرانى منذ أيامها الأولى فى أوروبا ، فوق ما لحق بها من تحريف فى فترة الاضطهاد الأوربى فترة تناقل الروايات فى ظروف لا تسمح بتمحيصها ولا بتواترها.

وكتب - كما يقول الأستاذ العقاد - بولس رسائله بعد ذلك - بعد القرن الأول الميلادى - وهى شاهد على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولاسيما فلسفة الحلول [1] ، وسائر ما أدخله فى النصرانية من تعاليم ما أنزل الله بها من سلطان ، مما أثار اضطرابا فكريا ودينيا فى ساحة البيئة الأوروبية.

هذا ولم تكن النصرانية - كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى - فى يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة قضايا الإنسان بحيث تقوم عليها حضارة إنسانية أو تسير فى ضوئها دولة ، ولكن فيها آثار من تعاليم السيد المسيح - عليه السلام - وعليها مسحة من دين التوحيد ، حتى جاء « بولس » فطمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التى انتقل منها ، والوثنية التى نشأ عليها ، حتى أصبحت النصرانية مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية اضمحلت فى جنبها تعاليم المسيح كما تتلاشى القطرة فى اليم ، وعادت نسيجا خشبيا من معتقدات وتقاليد لا تغذى الروح ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ولا تنير السبيل ، بل أصبحت بزيادات المحرفين وتأويل الجاهلين تحول بين الإنسان والعلم والفكر وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية » [2] ، مضطربة ، فقدت النصرانية

١- (الدين) للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١٦٩.

٢- (ماذا خسر العالم ..) ص ٣٨.

-بدخول «بولس» الوثنى فيها - ربانيتها ، وإنسانيتها وروحها ، ولو بعث المسيح - عليه السلام - لأنكر على الغربى دعوته ، ومعتقده الدينى ، وأصبحت النصرانية وما طرأ عليها من فكر بشرى وضعى لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، ولا تملك مشرعا صافيا من الدين الإلهى ، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشرى ، مما أوقع اضطرابا فكريا ودينيا واجتماعيا فى ساحة أوروبا .

ورابع مظاهر هذا الاضطراب يتمثل فى :

* دخول الامبراطور الرومانى «قسطنطين» فى النصرانية :

لقد كانت الكارثة العظمى - كما يقول المرحوم سيد قطب [1] - فى اضطراب الفكر الدينى فى أوربا ، كانت فى الحدث الذى تم بعد ذلك فى القرن الرابع الميلادى تغير الأمر فى دخول الامبراطور الرومانى قسطنطين النصرانية وكان دخوله فى ظاهره انتصار النصرانية وطريقها على امبراطوريته ، والدين الذى فرضه لم يكن دين المسيح وإنما دين الكنيسة الوضعى .

يصف « درابر » الأمريكى فى كتابه (الدين والعلم) هذا الحادث وآثاره النكدة يقول :

(دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية فى الدولة الرومية ، بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام ، وكذلك كان « قسطنطين » فقد مضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره سنة ٣٣٧م.

١- (المستقبل لهذا الدين) ص ٢٨ ، ٢٩.

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت «قسطنطين» الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية ، وتقتلع جرثومتها ، وكانت نتيجة كفاحها ان اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء.

إن هذا الامبراطور الذى كان عبدا للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين -النصرانى والوثنى - أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين لم ينكروا عليه خطته ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة - النصرانية المطعمة بالوثنية - ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة [1] ، وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها) [2].

ولكن هذه الديانة الوضعية الجديدة لم تتخلص - بعد ذلك - قط من أدناس الوثنية وأرجاسها - كما أمل واضعوا الفكر الدينى فى النصرانية - فقد ظلت تتلبس بهذه الأساطير والتصورات الاعتقادية الوثنية ، ثم زادت الطينة بلة ، فأصبحت تتلبس كذلك بالخلافات السياسية والعنصرية ، وأصبحت هذه العقيدة الوضعية تغير وتنقح لتحقيق مآرب سياسية.

وفى هذا الشأن يحدثنا « ألفرد بتلر » فى كتابه : « فتح العرب لمصر ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد » قائلا : « إن ذينك القرنين - الخامس والسادس الميلادين - كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف فى الجنس ، واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ، إذا كانت علة العلل فى ذلك الوقت ، تلك العداوة بين الملكانية

١- انظر (تأثر المسيحية بالأديان الوضعية) رسالة دكتوراه ، د. أحمد عجيبة مخطوط بمكتبة أصول الدين بطنطا.

٢- نقلا من (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ، ص ١٨٥ ، ١٨٦.

والمونوفيسية وكانت الطائفة الأولى - كما يدل عليها اسمها - حزب مذهب الدولة الامبراطورية ، وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة الموروثة وهى ازدواج طبيعة المسيح ، على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيسين - أهل مصر - كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حربا عنيفة ، فى حماسة هوجاء ، يصعب علينا أن نتصورها ، أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون، بل يؤمنون بالإنجيل . (١)

كما يصور ذلك - أيضا - ت.و. أرنولد فى كتاب (الدعوة إلى الإسلام) مبينا الخلاف الطائفى السياسى العنصرى وآثاره فى الابتداعات والإضافات والتعديلات فى الفكر الدينى النصرانى فيقول :

« لقد أفلح «جستنيان» قبل الفتح الإسلامى بمئة عام فى أن يكسب الامبراطورية الرومانية مظهرا من مظاهر الوحدة ، ولكن سرعان ما تصدعت بعد موته ، وأصبحت فى حاجة ماسة إلى شعور قوى مشترك ، يربط الولايات وحاضر الدولة ، أما « هرقل » فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحا كاملا فى إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية ، ولكن ما اتخذه من وسائل عامة فى سبيل التوفيق قد أدى إلى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه ، ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية ، فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرا يستعين به على تهدئة النفوس ، أن يقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات ، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنائس المتناحرة واحتدم الجدل قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة ... لكن هرقل قد لقى المصير الذى انتهى إليه كثيرون جدا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام ، ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف مايكون فحسب ، بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد ، وجر على نفسه سخط الطائفتين

١- نقلا من (المستقبل لهذا الدين) ص ٣٠.

على السواء » [1]. مما يؤكد أن جهود هذا الامبراطور لتفسير الدين لم تكن من أجل الدين ولكنها كانت محاولة سياسية بحته دفعه إليها ضعف القومية التى تربط بين أجزاء الامبراطورية ، فأراد أن يتخذ من الدين صنما بدلا من صنم القومية.

هذه الملابسات والمظاهر السيئة التى عج بها الفكر الدينى فى البيئة النصرانية فى بدء نشأتها أولا ، ثم عند انتصارها السياسى على ذلك النحو ثانيا ، ثم ما تلا ذلك الانتصار من خلافات سياسية وعنصرية وتحريفات وتعديلات فى العقيدة بسببها ثالث كل أولئك قد ملأ التصور الاعتقادى فيها بعناصر غريبة كل الغرابة على طبيعتها ، وعلى طبيعة الدين الإلهى كله ، ومن ثم لم يعد التصور النصراني - كما صنعته التحريفات المتوالية أولا ثم كما صاغته المجامع المقدسة العامة والخاصة أخيراً [2] - قادرا على أن يعطى التفسير الإلهى للوجود وحقيقته ، وحقيقة صلته بخالقه ، وحقيقة هذا الخالق وصفاته ، وحقيقة الوجود الإنسانى وغايته وطريقة هذه المقومات التى لابد أن تصح كى يصح النظام الاجتماعى الذى ينبثق منها ، ويقوم بعد ذلك عليها. [3]

ولم يقف الأمر عند فساد التصور الاعتقادى على هذا النحو ، بل مضت الملابسات النكدة فى طريقها خطوات عاثرة ، تظهر وتؤكد اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية ويتمثل هذا - أيضا - فى :

*** سيطرة الكنيسة على المجتمع الأوروبى:**

لقد سيطرت الكنيسة - فى العصور الوسطى - وتحكمت بشكل رئيسى وأساسى فى سير الأحداث فى البلاد الأوروبية ، وكان لها سلطانها ونفوذها

١- المرجع المذكور ص ٥٢ - ٥٣ من الترجمة العربية.

٢- يراجع بالتفصيل لمزيد من الافادة (محاضرات فى النصرانية) محمد أبو زهرة.

٣- (المستقبل لهذا الدين) ص ٣٢ ، ٣٣ ، بتصرف يسير.

وإما الاضطهاد والتعذيب والحرمان واللعن [1].

مما اضطر الإنسان الأوروبي أن يؤثر الخنوع والخضوع لما تقرره الكنيسة ، واتقى أسباب النزاع بانصياعه لسيطرة الكنيسة واستبدادها ، ولذلك بقيت أوروبا في ظل العصور الوسطى تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط[2]. وخير ما يؤكد ويعضد هذه النظرة المظلمة التي سادت الفكر الأوروبي ، والعقلية الغربية في العصور الوسطى ما سجله الغربيون أنفسهم ليدرك - القارئ الكريم - مدى التأخر العلمي والفكري الذي كانت عليه بلاد الغرب [3].

ومما يؤكد أن أوروبا لم تعرف دين الله تعالى المنزل على حقيقته الإلهية ، وإنما عرفت صورة محرفة من الموروثات الفكرية الوضعية ، « أن الكنيسة قد أجرمت في حق الله تعالى جريمتين مزدوجتين :

- الأولى : أنها عزلت عن تطبيق شرع الله واجبها الأول والمبرر الأكبر لوجودها إن كان لوجودها مبرر) .
- والثانية : أنها استخدمت سلطانها الذي حاربت من أجل الحصول عليه وأراقت الدماء في إخضاع الناس جميعا (ملوكهم ورعاعهم) لهواها وجبروتها هي ، فجعلت من رجالها أربابا من دون الله ..

ومن هنا فالجرائم التي ارتكبتها الكنيسة جرائم بشعة متراكب بعضها على بعض من أي زاوية نظرت إليها :

- فمن ناحية الدين المنزل شوهته وحرفته بفصل العقيدة عن الشريعة وتقديمه للناس عقيدة صرفا بلا تشريع أي مسخا مشوها لا يمثل دين الله الحق ، ثم

١- انظر (قصة الصراع بين الدين والفلسفة) د. توفيق الطويل ، ص ٩٥.

٢- (ماذا خسر العالم ...) ، ص ١٩٢.

٣- انظر (أوروبا العصور الوسطى) جـ٢ ، ص ٤١٢.

ادعت للناس أن هذا هو الدين الإلهى ، وزرعت فى عقول الناس تصورا خاطئا بأن الدين علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب ولا علاقة له بواقع الأرض ، فسهلت على الشياطين - فيما بعد - إقتلاع آثاره من واقع الحياة لأنه لم يكن عميق الجذور فى واقعها .

- ومن ناحية الواقع أسهمت فى إفساد الأرض بتعطيل شريعة الله والسماح للجاهلية الرومانية أن تحكم العالم - فى صورة قوانين وتنظيمات - ومنعت الإصلاح الذى أراده الله تعالى للناس حين نزل عليهم الدين فنشأت عن ذلك مظالم سياسية واقتصادية واجتماعية تمثل فى نظام الإقطاع الذى شاع وذاع فى العالم الأوروبى - فى ظل الكنيسة - أكثر من عشرة قرون ، مما سهل على الشياطين والمحرفين اقتلاع آثار الدين وتحطيمه باسم الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى ..

- فضلا عما أثارته من المنازعات مع الأباطرة والملوك مما أدى بهم - فيما بعد - إلى الانسلاخ من سلطان الكنيسة وربقتها ، وعمقت مفهوم الفصل بين الدين والسياسة ليصبح العداء الدائم بين الدين والسياسة ، وفصلت العلم عن الدين[1] ...

وهذا ما يؤكد الطابع المميز للفكر الدينى الأوروبى ومدى سطوة الدين الكنسى على كل مرافق الحياة فى أوروبا ، وكان ذلك أمرا سيئا شديد السوء لا بسبب سيطرة الدين على الحياة كما خيل لأوروبا بغباء فى جاهليتها القديمة والمعاصرة ، ولكن بسبب سيطرة الفساد الكامن فى ذلك الدين الكنسى على كل مرافق الحياة ، كما كان ما حواه هذا الدين الكنسى من انحرافات جذرية فى صلب العقيدة من ناحية ، وفى فصل العقيدة من الشريعة من ناحية أخرى ، وفى فساد ممثليه من رجال الدين وجهالتهم من ناحية ثالثة ، كان مفسدا ومعطلا

١- (مذاهب فكرية معاصرة) محمد قطب ، ص ٤٥.

وسيطرتها فى البيئة الغربية ، وقد وجدت الكنيسة الغربية فى جمع شملها وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها فى السيطرة والنفوذ على مجريات الأمور فى أوروبا. وكان من مظاهر هذه السيطرة أن وقفت بيد من حديد فى وجه الترف الرومانى أو السعار الشهوانى الذى كانت الامبراطورية الرومانية قد انتهت وآلت إليه قبل دخولها فى النصرانية.

وفى هذا الصدد يصف الكاتب الأمريكى « درابر » قائلا : « لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت فى فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات .. بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتارا ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول عمر اللذة، وكانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدم فى ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان كاسيات عاريات غير متعففات تدل دلالا ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة ، وميادين للهو واسعة، ومصارع يتصارع فيها الأبطال .. ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منه صريعا يتشحط فى دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هناك شئ يستحق العبادة فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان فى ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الإقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة فكان نظام رومة يشف عن آبهة الملك ولكنه كان طلاء خادعا كالذى نراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها » [1] .

١- (ماذا خسر العالم ..) ص ١٨٤.

ومن ثم أرادت الكنيسة أن تقف في وجه هذا السعار الجامح ، وهذا التردى الكاسح ولكنها لم تسلك إليه سبيل الفطرة السوية المعتدلة ، ولا كان قد بقى بين يديها من حقيقة التصور النصرانى الصحيح ما تقيم به الميزان بين الناس بالقسط، ولا ما تقيم به الميزان بين الإفراط والتفريط فى وظائف فطرتهم الطبيعية ، ولكنها ابتدعت نظام الرهبنة العاتية ، ولعلها كانت أشأم على البشرية من بهيمة الرومان الوثنية – على نحو ما سيتجلى بعد ذلك من خلال هذا البحث – ولم ينشئ ذلك علاجا لهذا الانحلال فى طبيعة المجتمع الأوروبى ولكنه أنشأ صراعا حادا بين طرفين جامحين ، كلاهما بعيد عن جادة الفطرة وحقيقة حاجات الإنسان.

ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها فى الساحة الأوروبية، وإنما شمل – أيضا – مسارح الفكر والعلم والمعرفة بل وكل الشئون الدنيوية لتشهد البلاد الأوروبية مزيدا من الصراع الفكرى أحيانا ، والصراع الدموى فى أكثر الأحايين لتفرض الكنيسة سيطرتها ونفوذها وذلك يتمثل فى الاضطهادات الكنيسة ضد من تسول له نفسه أن يفكر بعيدا عن الكنيسة ، وأن يأتى بعلم لا توافق عليه ، وقد تأخذ هذا النوع من الصراع بعض الوقت نتيجة للعصور المظلمة التى سادت أوروبا فى تلك الفترة من العصور الوسطى – وهى الفترة التى بسطت فيها الكنيسة سيطرتها على مقاليد الأمور فى البلاد الغربية.

فالعقل الأوروبى – فى هذه الفترة – كان على شفا الاحتضار بعوزه الإبداع، وتنقصه أصالة التفكير ، فيردد بعض ما انحدر إليه من تراث القدامى منساقا فى ركاب الكنيسة التى استبعدته وفرضت سيطرتها ورقابتها الصارمة عليه ، فلم يستطع الفكاك ولا التخلص منها لأنها وضعته بين شقى الرحى :

إما الانصياع لما تقره الكنيسة دون نظر أو تفكير (اعتقد وأنت أعمى).

لدفعة عجلة الحياة فى مسارها الطبيعى فى أوروبا ، كما كان مفسدا للعقول ومعطلا لها عن التفكير الدينى القويم ، ومضطربا فى تدينه.

ومن مظاهر اضطراب العقلية الأوروبية ، وتباينها فى الفكر الدينى.

*** ابتداع الرهبانية العاتية فى المجتمع الأوروبى :**

لعبت الرهبنة المسيحية دورا بارزا فى تاريخ الكنيسة ، كما أفصح عن ذلك د. جوزيف يوسف قائلا : « إن الرهبنة بأشكالها المتعددة لعبت دوراً قيادياً فى تاريخ الكنيسة المسيحية إعتبارا من القرن الثالث الميلادى فصاعدا » [1] . والرهبنة « نظام بدء يستهوى نفوس المسيحيين منذ الجيل الثالث للمسيح ، وقد توطدت نظمه وتقاليده وطقوسه على أيدى الرهبان الأوائل أنطونيوس وباخوميوس ومكاريوس ، وغيرهم ممن آثروا حياة العزلة والتبتل. [2]

وأهم البواعث التى دعت إلى انتشار الرهبانية بين المسيحيين فى الساحة الأوروبية منها ماهو اقتصادى ، ومنها مايعود إلى أسباب دينية ، ومنها ما يعود لفشل فى الحياة أو للاضطهاد أو للتظاهر بالزهد والتقوى والتشبه بحياة بعض القديسين سعيا وراء شهرة أو مكسب.

ويمكننا إجمال هذه الأسباب فيما يلى :

- أما الأسباب الاقتصادية ، فقد كانت الظروف الاقتصادية عاملا أساسيا من عوامل انتشار الرهبنة بين المسيحيين ، فقد عجز الناس عن دفع الضرائب التى فرضتها عليهم الدولة الرومانية مما دفعهم إلى الهروع إلى الصحراء ، وتركوا بيوتهم وممتلكاتهم وأولادهم لكى يحيوا حياة رهبانية توفر لهم الأمن [3] ،

١- (دراسات فى تاريخ العصور الوسطى) ، ص ٩٤.

٢- (تاريخ الأقباط) زكى شنوده ، جـ١ ، ص ١٨١.

٣- لمزيد من الاستفادة انظر (الرهبانية المسيحية وموقف الإسلام منها) ص ٧٨ - ٨٩ .

كذلك ندرة فرص العمل فى الأماكن المأهولة بالسكان شجعت الكثيرين على العزلة ، وأن يجربوا حياة الرهبنة فى الصحراء والجبال [1]، وهذا يؤكد أن الرهبنة ما نشأت فى الساحة الأوروبية ولم يكن الباعث عليها الدين ، وإنما تدخلت الظروف الاقتصادية فجعلتهم يترهبون.

وفى هذا تقول المؤرخة المسيحية (نتيشر) : « وأول باعث على هذه الرهبنة هو القانون الذى وضعه قسطنطين سنة ٣٢٠م وفيه يعفى العزاب والذين بلا نسل من دفع الضرائب المفروضة على غيرهم ، وهذا القانون حدا بالكثيرين من محبى النفس والمال إلى الامتناع عن الزواج بل ساعدهم على الشر والفساد ، إذ جاء فى فقرة أخرى منه أن اللقطاء يربون على نفقة الحكومة ، وأن الرهبان كانوا يعفون من الخدمة العسكرية فى مدة حكم قسطنطين » [2].

تعرض المسيحيون لشتى ألوان التعذيب وأنواع من الاضطهادات على أيدى أباطرة الرومان كانت من أهم البواعث لنشأة الرهبنة فى الحياة الأوروبية والكنيسة. [3]

ومن البواعث لظهور الرهبنة وازدهارها الإحساس القوى فى قلوب بعض الناس بأن الكنيسة فقدت قداستها وتكريسها وشعروا أن حياتهم الروحية لا يمكنها أن تنموا إلا بعيدا عن الأوساط الكنسية ، وعدم الرضى عن الكنيسة لأنهم رأوا أن رجال الدين سيطرت عليهم الأهواء وأصبحوا رجال دنيا. [4]

١- (تاريخ الكنيسة) جون لوريمر ، جـ٢ ، ص ١٣٤.
٢- (تاريخ الأمة القبطية) ، جـ١ ، ص ٢٧٦.
٣- (دراسات فى تاريخ العصور الوسطى) جوزيف يوسف ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ . (دراسات فى تاريخ الرهبانية) د. حكيم أمين ، ص ٤ - ١٥.
٤- انظر (قصة الحضارة) جـ٣ ، ص ٣٩٠ . (تاريخ الكنيسة) جـ٢ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، (فجر المسيحية) ، ص ١٧٤.

وعجزت الرهبانية كما يقول سيد قطب - ونظامها المنبثق من تصورات كنسية ومجمعية منحرفة عن أصل التصور النصراني ، عن أن يكون حتى نظاما أخلاقيا للعالم النصراني ، وخلف في النفوس جفوة الدين - والدين الإلهي منه براء - وترك فيها تحفزا للانتقاض عليه وعلى نظامه الذي لا تطيقه الفطرة ، وكان عاملا نكدا من عوامل ذلك الفصام النكد في نهاية المطاف » (١) ومظهرا من مظاهر اضطراب الفكر الديني في أوروبا.

ومن هذه المظاهر التي أدت - أيضا - إلى اضطراب الفكر الديني في الساحة الأوروبية.

*** انحطاط رجال الدين الكنسي وفساد أخلاقهم:**

صور الكاتب المسيحي « جاد المنفلوطي » حالة الفساد التي تردى إليها رجال الدين في العصور الوسطى ونعى عليهم قائلا : إن القلب ليفعم بالأسى ، وتقطر النفس مرارة عندما تتعرض للحياة الدينية في هذه الفترة ، فقد عم الانحطاط وساد ، ودب في الحياة دبيب الفساد ، ومن هامة الرأس إلى باطن القدم أصبحت الكنيسة مريضة وموسومة بسمة الانحطاط الخلقي ، لا فرق بين قائد ومقود ، الجميع زاغوا وفسدوا معا .. وغالبيتهم من مدمني الخمر ، مستعدين للعديد من الخطايا كخطيئة الزنا ، وكانوا يعيشون في بحبوحة من العيش ، يسعون وراء المتع الزائلة ، مهملين للقيام بواجباتهم الدينية ، إنهم لم يأخذوها خدمة ولكن وظائف ، وكانوا طامعين في الربح القبيح يشترون المناصب والوظائف الدينية بالمال ، حتى توصل كثير من المجرمين وغير المؤهلين إلى المناصب الدينية الكبرى عن طريق المال » (٢).

١- (المستقبل لهذا الدين) ، ص ٣٦.

٢- لمزيد من الاستفادة انظر (المسيحية في العصور الوسطى) ، ص ٣٩. (أوروبا العصور الوسطى) جـ١ ، ص ٣٣٠. (تاريخ الكنيسة) جون لوريمر ، جـ٢ ، ص ١٣٦.

وكانت هذه طامة كبرى يوم اكتشف الأوروبى أن حياة رجال الكنيسة الشخصية ، لا تعج بالمتاع بالطيبات فحسب ولا تسقط فى الترف فحسب وإنما نشا فيها الفواحش والمناكر ، وولع رجال الدين الكنسى بالشهوات والمنكرات ، والتفوا حول موائد الفساد والانحطاط ، وتساقطوا تحت أرجل الرزائل والمكايد ، وانغمسوا فى كافة المفاسد والموبقات ، فى حين تأمر الكنيسة أتباعها بالحرمان القاسى وتنذرهم باستحالة نفاذهم إلى الجنة إذا هم زاولوا من طيبات الحياة شيئا ، أليست هذه المتناقضات تولد فى نفسية الأوروبى اضطرابا فى فكره ومعتقده ، وتباينا فى تدينه ؟!!

ومن مظاهر اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا.

* **سيطرة البابوية على الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى[1]:**

دخلت الكنيسة فى نزاع طويل وحاد مع الأباطرة والملوك لا على الدين والأخلاق ولكن على السلطة والنفوذ وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والامبراطورية ، وأدى ضعف الأباطرة وانهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م إلى ازدياد سلطة البابوية وارتفاع شأن البابا فى أوروبا ..

وقد وقع أكثر من صدام بين البابوية والقادة السياسيين فى الفترة ما بين القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الميلادى أدى إلى فساد رجال الدين وانحطاط البابوية إلى سيطرة الحكام على الكنيسة ، ولكن ما لبثت البابوية أن تماسكت وأعادت سيطرتها وسيادتها ، وبلغ نفوذ البابوية الدينى والفكرى والدنيوى بوجه عام ذروته فى القرن الثالث عشر عندما أصبح البابا فى أوروبا بمثابة ملك يتمتع بسلطان زمنى فوق سلطانه الروحى ، ويهيمن على الكنيسة ،

١- انظر (البابوية وسيطرتها على الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى) د. أحمد عجيبة ، مقال بحولية أصول الدين طنطا ، ١٩٩١م.

فإذا ما أراد البابا أمرا فعلى الملوك طاعته وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان والطرد من الكنيسة ، وما يتبع ذلك من متاعب لا قبل لهم بها داخل بلادهم وخارجها[1].

ووجدت الكنيسة الغربية فى جمع شملها وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها فى السيطرة ، وأصبح البابا فى نظر الأوروبيين رأس الكنيسة ، ومصدر ولايتها ، والحارس الأول على قوانينها ، ونظمها ، وعقائدها ، ومعلم أتباعها المعصوم من الخطأ ، فضلا عن اعتقادهم بأن البابا نائب المسيح لأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة.

ولم تكن البابوية بمنجاة من هذه المساوئ التى كانت هى الطابع المميز لحياة الكنيسة عامة فى ذلك العصر حيث وصلت حالة البابوية فى القرنين التاسع والعاشر إلى أحط درجات الانحطاط.

يقول جيروم مبينا الحالة المتردية التى وصل إليها ذوى المناصب الصغيرة فى الكنيسة وصولا إلى الأساقفة والبابوات أنفسهم كانوا يتحدرون إلى هذا المنزلق الخطير : « نعم تشوهت صورة البابوية وتلطخت بالكثير من التشوهات التى لم تكن تخطر على بال ، وأصبح مركز البابا موضع نزاع بين القادة السياسيين المتنافسين وأتباعهم وبعض الذين شغلوا ذلك المنصب فى خلال تلك الفترة لم يكونوا فوق مستوى الشبهات بل أنهم كانوا من ذوى السمعة السيئة وارتكبوا أفظع أنواع الجرائم وأبشعها »[2].

ويقول : « إن عيش القسوس وتعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما ، واستحوذ عليهم الجشع

١- (تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى) فيشر القسم الأول ص ٢٣١.

٢- (المسيحية فى العصور الوسطى) ص ٤٠ ، ٤١ .

وحب المال ، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع ، وقد تباع بالمزاد العلنى ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقص القانون ويمنحون شهادات النجاة ، وأجازات حل المحرمات والمحظورات ، كأوراق النقد وطوابع البريد ، ويرتشون ويرابون ، وقد بذروا المال تبذيرا ، حتى اضطر البابا « إنوسنت الثامن » أن يرهن تاج البابوية ، ويرى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم »(١).

ومن ثم يظهر لنا ما كان يمكن أن يفعله الأساقفة والبابوات من دور فعال فى تقدم النظرة الدينية فى الساحة الأوروبية بما أعطتهم لهم الكنيسة وأشياعها من ملكات ومؤهلات قيادية بناءة إلا أنهم أساؤا استعمال سلطتهم الدينية واستغلوها لنفوذهم وجاههم ، ولتحقيق مآربهم الشخصية ، وإرضاء شهواتهم ، وسيطر عليهم حب المال والجاه والسلطان ، وفى سبيل الحفاظ على هذا النفوذ وتوطيده كانوا على أتم الاستعداد لاستخدام شتى أساليب التنكيل والاضطهاد لمن تسول له نفسه بالخروج عليهم ، أو مخالفتهم ، أو زعزعة الثقة فى حكمهم وسلطانهم ، فلم يهادنوا المخالفين ، ولم يسامحوهم ، وإنما نكلوا بهم من غير رفق ولا رحمة ولا هوادة وأذاقوهم مرارة المخالفة ، مما أدى إلى زعزعة النظرة الدينية ، وبلبلة الفكر الدينى فى نفسية الأوروبى .

ومن ملابسات اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا - أيضا -.

*** استبداد الكنيسة واضطهادها للفكر فى العصور الوسطى:**

لقد اشتد ضغط الكنيسة على أتباعها وبالغت فى فرض آرائها على أشياعها مبالغة تجاوزت حد الغلو ، ولم تسلك فى فرض آرائها طريق الحكمة بل

١- (ماذا خسر العالم ...) ص ١٩١ .

سلكت سبيل العنف وركبت متن الشدة ، فجعلت كل رأى فى العلوم الكونية يخالف رأيها يُعد كفراً ، ويجب حرق أو تعذيب المهرطق بلا رفق ولا هوادة.

وكانت القاصمة - كما يقول سيد قطب - التى تم بها ذلك الفصام النكد وانتهى بها الأمر فى أوروبا بين الحياة والدين ، وانقطع بها نهائيا ما بين التصور الاعتقادى والنظام الاجتماعى من سبب ، بل كانت الجناية الكبرى التى جنتها الكنيسة الغربية على نفسها ، وعلى الفكر النصرانى أن احتجزت لنفسها حق فهم الكتاب المقدس - كما يزعمون - وتفسيره ، وحظرت على أى عقل من خارج الكهنوت أن يحاول فهمه أو تفسيره ، ثم أتبعت هذا بإدخال معميات في العقيدة لاسبيل لإدراكها أو تصورها أو تصديقها ، وقد فرضت الكنيسة على الناس قبولها ، ومنعتهم من المناقشة ، وإلا عرضوا أنفسهم للطرد والحرمان.

ثم لم تكتف الكنيسة بتلك المعميات والخرافات فى العقيدة والشعائر - مع كف الناس عن البحث عن أصولها فى الكتاب المقدس ومحاولة فهمه أو تفسيره- بل أتبعتها بأمثالها فى الكون والحياة ، فادعت آراء ونظريات جغرافية وتاريخية وطبيعية مما كان سائداً فى عصرها ، مليئة بالخطأ والخرافة عن الكون والحياة والإنسان وجعلتها مقدسة لا تجوز مناقشتها ولا تصحيحها ولا تجربتها ولا القول بسواها » [1].

ويصور السيد أبو الحسن الندوى هذه القاصمة تصويرا دقيقا لا يحتاج إلى تعليق أو تعقيب مبينا مدى السيطرة التى فرضتها الكنيسة ورجالها على أشياعها وأتباعهم قائلا : « ومن أعظم أخطاء رجال الدين فى أوروبا ، ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الذين كانوا يمثلونه ، أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ، ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، بل درسوا كل ما تناقلته الألسن ، واشتهر بين الناس ، وذكره

١- (المستقبل لهذا الدين) ، ص ٤١ ، ٤٢.

بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريهما وصبغوها صبغة دينية ، وعدوها من تعاليم الدين وأصول التى يجب الاعتقاد بها ، ونبذ كل ما يعارضها ، وكفروا كل من لم يدن بها ».

وكانت « الجغرافيا المسيحية » التى ألفها رجال الدين الكنسى فى عصر «انفجر فيه بركان العقلية فى أوروبا ، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الدينى ، فزيفوا هذه الجغرافية التى اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها فى صرامة وصراحة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها ، وأعلنوا اكتشافاتهم واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة ، وقام رجالها - المتصرفون فى زمام الأمور فى أوروبا - وكفروهم ، واستحلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل الدين المسيحى ، وأنشاءوا محاكم التفتيش التى تعاقب - كما يقول البابا - الملحدين والزنادقة ، فجدت واجتهدت ألا تدع فى العالم النصرانى عرقا نابضا ضد الكنيسة » [1].

وكان هذا من أهم الملابسات والمظاهر التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا.

*** محاكم التفتيش أو (دواوين التحقيق) فى محاولة لإخفاء حقيقتها:**

« وهى واحدة من أفظع وأخطر المظاهر التى استخدمتها السلطات الكنسية لإحكام استبدادها وقبضتها لمحاربة الفكر وجندلة أهله » [2] ، ونظمت هذه المحاكم كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارة رجال الدين - الكنسى ضد من يخرج على النظام الكنسى - وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير

١- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٩٣ ، ١٩٤ بتصرف يسير .

٢- (قصة الصراع بين الدين والفلسفة) ص ١٩ . (محاكم التفتيش نشأتها وتطورها) د. اسحق عبيد ص ٣٩ .

الإنساني بالنار والعذاب ، وكان كبار رجالها يقفون فى مئات الساحات ليرقبوا أجسام أعدائهم وهى تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة (١) ، ولا يكاد المؤرخون الغربيون يتعرضون للحديث عنها إلا ويصيبهم الاضطراب ، وتنفجر كلماتهم رعبا ، وإذا كان هذا هو حال المؤرخ لهذه الأحداث فما بالك بالضحايا الذين أزهقت أروحهم والسجناء الذين أذيقوا ألوان المر والنكال (٢) .

وكانت هذه المحاكم بابوية محضة تستمد سلطاتها من البابا مباشرة أو المفوض عنه أو من رجال الدين المعروفين بتعصبهم الشديد لكنيستهم ، ولا دخل للحكومات فى تصرفاتها ، اللهم إلا قيامها بتنفيذ أحكامها ، ومحاكماتها سرية ومن واجباتها مراقبة المطبوعات والمدارس وتقرير الكتب التى يسمح بتداولها ، وإحراق الكتب التى لا تتفق مع المذهب الكنسى - الكاثوليكى - كما أنها تقوم بالتجسس - بالطرق المشروع وغيرها - على من يشتبه فى عقيدتهم والقبض عليهم ومحاكمتهم فى جلسات سرية ، وتعذيبهم بمختلف الطرق القاسية التى تكرههم على الاعتراف بهرطقتهم (٣) .

والعقوبات التى كانت تصدرها محاكم التفتيش كانت تدور عادة بين الاعداد والسجن بصنوفهما المختلفة والمتعددة والتى لا يراعى فيها أى حرمة لآدمية الإنسان ، حيث رويت مآسى مروعة ، وكانت أغلب الأحكام الموت حرقا وأقلها السجن المؤبد ، وعملت الكنيسة لا على إبادة الخارجين فقط عليها بل ومصادرة أملاكهم وأموالهم وهدم منازلهم والمنازل المجاورة لهم. ولجأت إلى هدم منازل الهراطقة ، وإحراق جثث الموتى من المهرطقين إعتقادا منهم أنه قد يصاب المكان الذى يضم رفات الهرطيق بالدنس ، ولذلك نبشت قبور عدة ، وأهينت

١- (معالم تاريخ الإنسانية) ويلز المجلد الثالث ، ص ٩٠٩.

٢- (العلمانية) ص ١٣١.

٣- (المجامع المسيحية) د. محمد رجب الشتيوى ، ص ٣٨٣ .

حرمة جثث كثيرة وسط قرع الطبول ولهيب المحرقة ، وقد توطد هذا النظام الآثم وشاعت تلك المحاكم الظالمة حتى غطت العالم المسيحى الغربى كله بشبكة لا سبيل إلى إتقائها ، كما اعتبرت هذه المحاكم مقدسة (١).

الأمر الذى أدى إلى ثورة عارمة ضد التعاليم الكنسية ، وضد رجال الكنيسة ، وثار المجددون والمتنورون وأصبحوا حربا لرجال الدين وممثلى الكنيسة والمحافظين على القديم ومقتوا كل ما يتصل بهم ، ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحى أولا ، والدين المطلق واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقلية وزعماء الدين البوليسى حرباً بين العلم والدين مطلقا ، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الدينى ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى .

وإذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزكية التى أريقت فى سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة وجباه مقطبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء ، وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به ، وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم ، ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمصابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ، ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته ، ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين من عهدة ومسئولية ، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود واستبداد وسوء تمثيل ، فلا ينبذوا الدين نبذ

١- يراجع لمزيد من الاستفادة (صلة العلم بالمجتمع) ج.ج كراوثر ترجمة حسن خطاب سلسلة الألف كتاب ، مكتبة النهضة المصرية.

التواة ، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين ، والاستعجال ، لم يسمح بالنظر فى أمر الدين والتريث فى شأنه كغالب الثوار فى أكثر الأعصار والأمصار . (1)

هذه أهم الملابسات والمظاهر النكدة التى عانت منها أوروبا - ومازالت - تعانى معها البشرية - من جراء هذه الاضطراب الفكرى - آثاره التعيسة ، وتتجرع كأسه المرير ، وهذا هو الدين الذى اضطربت فيه العقلية الأوروبية اضطرابا متباينا ، وثارت عليه أوروبا ، فحرفته وشوهت معالمه ثم زيفت خصائصه الربانية ، وتصوراته الإلهية ، وقيمه وأسسه السماوية ، ذلك التزييف الشنيع.

والمتأمل فيما سلفناه من مظاهر ، وحرب ضد الدين ، إنما هى ملابسات ومظاهر كانت وليدة بيئة خارجة عن بيئتنا الإسلامية ، والدين الذى هوجم وشنع عليه هو الدين الوضعى الذى كان من نتاج العقلية البشرية ، فهل كان هذا الاضطراب فى الفكر الدينى - كما تجلى لك أخى القارئ الكريم من خلال عرضنا السالف - فى الساحة الأوروبية بواعث ودوافع ؟

هذا التساؤل يحتاج منا إلى تمحيص ودراسة للإجابة عنه فى النقطة التالية فأقول وبالله التوفيق.

1- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

ثالثا: أهم البواعث التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى البيئة الغربية:

بعد أن بينا أهم الملابسات والمظاهر التى كانت سببا فى اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية ، فإنه يمكننا إجلاء أهم الأسباب التى نجم عنها الاضطراب والتباين فى الفكر الغربى فى كافة ما يظهره من نظم وتقنينات للحياة ، وخاصة فيما يتعلق بالفكر الدينى وأجملها فيمايلى :

* **أولاً** : تعدد المواريث الدينية المظلمة ، وكثافة الأفكار الدينية الوضعية فيما يتعلق بالدين الذى توارثوه من الأمم القديمة.

* **ثانيا** : انقطاع السند فى مصادر الفكر الدينى الوضعى ، وخاصة فى الأناجيل المقدسة - كما يزعمون - وتحريفها ، وغموض تعاليمها ، واختلافها ، وانقسم الفكر الدينى فى أوروبا ، وتباين وافترق الأوربيون إلى شيع وأحزاب وطوائف وفرق مختلفة متناحرة ، ولكل فرقة من هذه الفرق المتعددة الحق فى فهم الأناجيل ، وفق مآربها وعقليتها ، وكذلك شعائرها وأخلاقها وكنائسها وشعوبها ... الخ. وكل فرقة تنكر على الأخرى ما قالت به وأخذت ، ولم يقف أمر الانقسام فى الفكر الدينى الأوروبى إلى التشعب والتحزب فى الفكر أو الرأى أو حتى الاختلاف فى الفروع فى فهمها ، بل لم يقف الحد عند الاتهام بالجنوح والبعد عن مبادئ المسيحية - الوضعية - بل وصل إلى حد السب واللعن والقذف والطرد والحرمان ، بل لم يقف أمر التباين بين الطوائف المسيحية البوليسية عند هذا الحد - وهو أمر جد خطير - بل إن الصراع الفكرى، والاختلاف الدينى ، والشقاق والعداوة ، وصل إلى مداه ، حيث اشتعلت نار الصراع المرير الدامى فى أتفه الأمور وأبسطها ، كأن يتزوج أحد الطوائف من طائفة أخرى ، وسجل التاريخ مئات الآلاف بل الملايين من الضحايا سقطوا فى بحر من الدماء ، ولن أسرد كل الفرق

فى بيان مدى اختلاف كل واحدة عن الأخرى ، ونتائج هذا الاختلاف فهذا أمر يطول بيانه ، وما أسفرت عنه هذه الاختلافات عن صراعات دموية رهيبة. (١)

* ثالثا : نشأ الغرب متشربا لتعاليم الكنيسة ومبادئها ، وأساليبها من كبت وقهر وفرض ضرائب وصكوك غفران ، واستنزاف خيرات الآخرين ، وسلب نتيجة عرقهم ، ومص دمائهم ، كما نشأ متشربا أساليب القتل والفتك واستعمال كافة أساليب الخراب والدمار فى كل وقت ومكان طالما مكنتهم الظروف وإلا تلونوا واستخدموا أساليب الحيل والمكر والدهاء ، فقد سجل التاريخ ما خلفته الصراعات الدموية ، واستعمار الدول الأوروبية للأقطار العربية وما ذاقته هذه الأقطار من قهر وبطش وطغيان ، ونهب ممتلكات ، وهتك أعراض ، وسفك دماء ، وما هذه السجلات التاريخية عنا ببعيدة ، فها هى مكتباتنا زاخرة بهذه المؤلفات. (٢)

*رابعا : تحريف وإضافة معلومات إلى نصوص كتبهم المقدسة كان له أكبر الأثر فى نشأت هذا الصراع والاضطراب الفكرى فى الساحة الأوروبية ، ورغم اعتقاد الأوروبى بصحة هذه النصوص وقدسيتها وأنها معصومة من الخطأ ، إلا أن التقدم العلمى قد كشف النقاب عن وجود نقاط خلاف بين كتبهم المقدسة والعلم ، كما كشف عن وجود أخطاء علمية

١- انظر لمزيد من الاستفادة (الصراع الاجتماعى وموقف الإسلام منه) د. محمد رمزى فراز ، رسالة الدكتوراه ص ٥٢ - ٥٨ ، مخطوط بمكتبة أصول الدين بالقاهرة ، ١٩٨٩م. (محاضرات فى النصرانية) محمد أبو زهرة . (قصة الاضطهاد الدينى) د. توفيق الطويل. (قصة الصراع بين الدين والفلسفة) ، د. توفيق رزق الطويل ، وغيرها.

٢- الحروب الصليبية وما تولد عنها من آثار مدمرة على العالم الغربى نتيجة فشلها ، وما هدفت إليه.

فى هذه الكتب ، وقد خلق هذا الوضع الخطير من محاربة الكنيسة وعدائها للعلم والعلماء - كما سبق بيانه - مما دفعهم دفعا إلى تقديم كل من خالف الجغرافية المسيحية إلى محاكم التفتيش، ولعل معرفة القارئ الكريم للوسائل التى استخدمتها الكنيسة لقمع الفكر المخالف لها لخير دليل على ما نقول ، ومن أهمها :

١- الحرمان من الكنيسة ، وقد اعتمدته الكنيسة فى بداية أمرها لمحاربة الفكر المخالف على ما يسمى بوسائل الإرهاب الروحى والتى تقوم أساس على الحرمان واللعن والطرد منها [١].

٢- محاكم التفتيش - وقد سلف بيانها.

* خامسا : يضاف إلى ذلك كله ما ذكرناه من أن رجال الدين الأوروبى فرضوا الوصاية الطاغية على ماليس داخلا فى اختصاصهم ونصبوا من أنفسهم حكاما على كل نشاط أو فكر علمى . وقد نشأ ذلك نتيجة لضيق صدر الكنيسة مما يخالف تعاليمها ، وإصرارها الأعمى على التشبث بآرائها ، تلك الآراء التى تكونت - كما أسلفنا - من الأساطير والخرافات والأديان الوثنية ، فكان الامتداد الطبيعى للطغيان الدينى طغيانا فكريا عاما ، ولذلك حاسبت الكنيسة الناس لا على ماتعتقده قلوبهم فحسب ، بل على نتاج قرائحهم وبنات أفكارهم، وتوهمت أن فى قدرتها أن تملك ما لا تستطيع أية قوة طاغية أن تحتكره وهو الحقيقة العلمية فيما يتعلق بالتجربة المحسوسة أو النظر العقلى السليم ، وبذلك أقحمت الكنيسة نفسها فى متاهات كانت

١- أحيل القارئ الكريم لمزيد من الاستفادة فى هذا الموضوع (قصة الحضارة) ول ديورانت ، مجلد ٤ ص ٤٥ - ٤٨. (عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة) كولتون ترجمة د. جوزيف يوسف ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧م.

غنية كل الغنى عن عبورها ، وأثارت على نفسها حربا ضروسا لا هوادة ولا تمييز فيها (١).

وقد كشف ويلز الغطاء وراء هذا التعصب الأعمى من جانب رجال الدين مشيرا إلى أن سبب تعصبهم وبغضهم للمخالفين راجع إلى أن كثيرا منهم على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم، وصحته المطلقة ، ولذلك لم يسمحوا بأية مناقشة فيه ، ولا يحتملون أية أسئلة ، ولا يتسامحون فى مخالفة ، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها ، وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم لأسباب تتصل بالسياسة . (٢)

* سادسا : ومن الأسباب التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا عدم كمال دائرة الفروض العقلية التى اخترعوا لمناقشة التدين ونشأة الدين وتطوره ، فضلا عن بطلان مصادرهم في هذا الصدد ، وما بنى على باطل فهو باطل.

* سابعا : عدم تطبيق الحيدة العلمية فى البحث ، وفساد المقاييس التى وضعوها لتفسير الذاتية الدينية ونشأتها ومصادرها ، واتباعهم لمصادر المعرفة الإنسانية القائمة على النتاج العقلى البشرى ، ولا ريب فى أن تنوع المنابع وتعدد المعايير التى استقى منها العقل الأوروبى ثقافته ، واختلافها فيما بينها أدى إلى اضطرابه وتخبطه فى كافة أموره العلمية والعملية ، وكان لهذا التخبط والاضطراب آثاره المدمرة على كيانه وذاتيته ، وهذا ما يدفعنا إلى بيان النقطة التالية.

(١ ، ٢) (معالم تاريخ الإنسانية) المجلد الثالث ص ٩٠٢ - ٩٠٣ . نقلا عن (سيطرة البابوية) ص ٥٧ ، ٥٨.

رابعا: بيان الآثار التى ترتبت على تخبط الفكر الدينى فى العالم الأوروبى:

لا تعلم أن عصرا من العصور قد اتفق فيه أصحاب الرأى - كما يقول الأستاذ عباس العقاد - على وجهة واحدة فى مسائل العقيدة الدينية ، ولكن العصور مع ذلك تتباين وتختلف فى التفكير ، ويحمل كل منها طابعه وسماته فى شئون العقيدة الدينية ، وفى غيرها من الشئون العامة التى تتسع فيها مطارح الآراء ، ومسارح الأهواء ، فإذا حسبنا لهذه المفارقات أو المشابهات حسابها على جملتها جاز أن يقال : أن الحضارة الغربية تحولت منذ القرن السابع عشر من الشك فى الدين إلى الشك فى العقل ، إلى الشك فى العلم الحديث ، وإنها الآن تدخل فى أبواب جديدة من الشكوك ...

وربما كان الأصح أن يقال : إن الحضارة الغربية بدأت بالشك فى السلطة الدينية لا فى الدين نفسه ، وإن الدين الذى شكت فيه أو أنكرته كان هو الدين كما تشبث به الجامدون على التقاليد أو على العرف المقرر فى عهود الجهل والطغيان » [1].

لذلك وجدنا الفكر الأوروبى مضطربا فى تحديد هوية الدين ونشأته والأطوار التى مر بها كما كان للموروثات الدينية القديمة التى تأثر بها الفكر الغربى أثرها الفعال فى تخبط هذا الفكر واضطرابه ، وتولد عن هذا الاضطراب مجموعة من الأفكار والمذاهب الوضعية المتباينة وماهى إلا انعكاس لظروف محلية بحته فى أوروبا ، وهذا أمر منطقى - إذا رجعنا إلى الظروف التى ساعدت على توالد هذه الأفكار وأهمها : عبث الكنيسة بدين الله تعالى المنزل على المسيح عليه السلام وتحريفه وتشويهه ، وتقديمه للناس فى صورة منفرة دون أن يكون لديهم مرجع

١- (عقائد المفكرين فى القرن العشرين) ، ص ٢٥ .

يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث وإرجاعه إلى أصوله الصحيحة المنزلة - كما هو الحال مع القرآن المحفوظ بقدر الله ومشيئته من كل عبث أو تحريف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - ثم استبداد رجال الدين الكنسى بأفكارهم وشرح نصوص كتبهم المقدسة - كما يزعمون - وإضفاء الهالة والقداسة على هذه الأفكار ، ثم اضطهاد من تسول له نفسه بالخروج عليها أو الحيدة عنها بشتى ألوان التعذيب ، وأقسى أنواع التنكيل ، ومن ثم نقول : إن الظروف التى أحاطت بالدين فى أوروبا تفسر ولا تبرر ، إنها تفسر شرود الناس فى هذه البيئة عن الدين ولكنها لا تبرره ، فإنه لاشئ على الإطلاق يبرر بُعد الإنسان عن خالقه، ونبذه لعبادته على النحو الذى افترضته على عباده ، سواء بالاعتقاد بوحدانيته، أو بتوجيه الشعائر التعبدية إليه وحده ، أو بتنفيذ شريعته ، فهذا التصرف المنحرف من الإنسان الذى نبذ الدين وابتعد عن الله ، فوزره على نفسه ، وإثمه يقع على عاتقه دون غيره .

ولما كنا بصدد البحث عن الانحرافات والاضطرابات التى وقعت فى الساحة الفكرية الدينية فى أوروبا ، فإن أوروبا قد اعتنقت دينا منعزلا عن حياة الناس ، وعقيدة منفصلة عن شريعته بصرف النظر عما حدث فى هذه العقيدة من تحريف على أيدى الكنيسة ودعاتها ، ولم تحكم الشريعة شيئا فى حياة الناس فى أوروبا إلا الأحوال الشخصية فحسب دون غيرها من الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الأمر الذى جعل أوروبا حين تطلق كلمة « الدين » فإنها تعنى بها : إبعاد الدين عن واقع الحياة ودنيا الناس وحصره فى المعبد والكنيسة ، وكان من أهم الآثار التى نجمت عن هذا ينحصر فى «لا دينية أوروبا » فى كل مجال من مجالاتها العملية وإقصاء بقايا الدين داخل الكنيسة ، وهو ما ينادى بها فى

عصرنا الحاضر بظهور النزعة « العلمانية » فى الساحة الأوروبية ، والميدان الإسلامى (١).

ومن ثم يمكننا إجمال الآثار التى ترتبت على تخبط واضطراب الفكر الدينى فى أوروبا بعدما وضحت الملابسات والمظاهر التى أدت إلى هذا الاضطراب، والبواعث له ، فيمايلى :

أولاً : تحريف الدين وتشويهه .

ثانياً : طغيان الطابع المادى فى نفوس الأوروبيين وبعدهم عن الدين.

ثالثاً : بطلان الحاسة الدينية فى قلوب الغربيين.

رابعاً : زوال العاطفة الدينية من الكيان الأوروبى.

خامساً : عجز رجال الدين الكنسى عن تعديل المادية الجامحة.

سادساً : انتشار كافة الأمراض البدنية والعقلية والنفسية فى أوروبا.

سابعاً : إفشاء ظاهرة اليأس والانتحار فى الوسط الأوروبى.

ثامناً : رزايا الإنسانية من تحريف الفكر الأوروبى واضطرابه.

تاسعاً : دعوة المنصفين من الأوروبيين للدين الحق.

ولى مع كل أثر من هذه الآثار وقفه لتوضيحه فى صورة مجملة فأقول وبالله التوفيق :

– أما فيما يتعلق **بالأثر الأول** الذى ترتب على تخبط الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية وهو تحريف الدين الإلهى وتشويه معالمه ، نحتاج أولا أن نتذكر

١– وقد دحض علماؤنا الأجلاء هذه النزعة وفندوا شبهاتها ، وقاوموها وردوا عليها . انظر (الإسلام والعلمانية وجها لوجه) د. يوسف القرضاوى . (سقوط العلمانية) أنور الجندى وغيرهما.
مايدل دلالة قاطعة على أنه إن صحت فكرة العلمانية فى البيئة الأوروبية كبديل عن الدين ، فإن ساحتنا الإسلامية لا ترضى بغير الإسلام دينا.

أنه فى الوقت الذى لم يكن للدين الإلهى وجود فى البيئة الغربية - سواء فى صورة عقيدة صحيحة أو صورة شريعة حاكمة - فإنه كان هناك نفوذ ضخم جداً يمارس باسم الدين فى مجال العقيدة وفى مجالات الحياة العملية كلها من قبل رجال الدين ، ويتمثل فى حس الأوروبى على أنه هو الدين ، أى أن الصورة الواقعية للدين فى أوروبا كانت تتمثل أولا فى عقيدة مأخوذة من الأناجيل -المنحرفة - وشروحها ، تقول :

إن الله ثالث ثلاثة ، وإن الله هو المسيح ابن مريم ، وتتمثل ثانيا فى صلوات وقداسات ومواعظ واحتفالات تقام فى الكنائس يوم الأحد بصفة خاصة ، وتتمثل أخيرا - وليس آخرا - فى نفوذ رجال الدين على الملوك والأباطرة وعلى عامة الناس ، فأما نفوذهم على الملوك فيتضمن أنهم لا يجلسون على عروشهم إلا بإذن البابا ومباركته ولا يتولون سلطانهم على شعوبهم إلا بتولية البابا لهم ، وإذا غضب البابا عليهم نبذتهم شعوبهم ولم تذعن لأوامرهم ، وأما نفوذهم على عامة الناس فيتضمن أنهم لا يصبحون مسيحيين إلا بتعميد الكاهن لهم ، ولا صلاة لهم إلا بحضور الكاهن فى الكنيسة ، ولا يموتون موتا صحيحا إلا بإقامة قداس الجنازة لهم على يد الكاهن ، ولا يعتقدون إلا ما يلقنهم إياه رجال الدين من شئون العقيدة ، ولا يفكرون إلا فيما يسمح لهم رجال الدين بالتفكير فيه فضلا على نفوذ رجال الدين على أموال وأجساد وأرواح الناس [1] ومدى نفوذ وطغيان الكنيسة على قلوب الناس وأرواحهم .

وقد تمثل هذا الطغيان مظاهر شتى (روحى ، وعقلى ، وفكرى ، ومالى ، وسياسى ، وعلمى) وكانت العامل الأول فى تحريف الدين الإلهى وتشويهه ، فقد امتدت يد رجال الدين الكنسى إلى الدين الإلهى الذى جاء به السيد المسيح

١- (مذاهب فكرية معاصرة) ، محمد قطب ، ص ٤٤٠ ، ولمزيد من الاستفادة أنظر التمهيد الأول من هذا الكتاب ص ٩ ، دار الشروق ، ط٣ ، ١٩٨٨م.

فشوهت صورته ، وطمست معالمه ، وغيرت شرائعه ، وبدلت حقائقه ، وحولته من دين إلهي يعتمد في أصوله وأحكامه على الله إلى دين وضعي أرضي نبت وغذي من أفكار بشرية وثنية [1].

وعقائد الديانة النصرانية الوضعية تعد من أعقد الديانات الفكرية فهي تتصادم مع أبسط قواعد العقل والمنطق والحساب ، وقد عجز رجال الكهنوت عن تفسير غوامضها ، والتعبير عن كنهها وعقائدها وعجزوا عن توضيحها وإقناع الناس بها ، فضلا عن تأثرها بالأديان الوضعية الوثنية فهي نتاج مركب من الأساطير والخرافات والفلسفات الوثنية كما سبق أن وضحنا.

*** الأثر الثاني: طغيان الطابع المادي في نفوس الأوروبيين وانحرافهم عن الدين الإلهي:**

ولما كان الفكر الأوروبي في كافة مناحيه (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) وخاصة ما يتعلق بالفكر الديني معتمدا على مخلفات الأمم السابقة عليه كاليونانية والرومانية – وقد أسلفنا بطغيان الجانب المادي في حياتهما – فإنه على غلب وساد الجانب المادي – بعد عجز الدين الكنسي عن جذب الناس إليه – على الطغيان الكنسي ورجاله ولو أدى ذلك إلى الطرد والحرمان والقتل والتعذيب ممثلا في (محاكم التفتيش) وانصرفت العقلية الأوروبية إلى المادية بكل معانيها وما تتضمنه من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاقية واجتماعية وعلمية وأدبية وسياسية وحكم ، وقام علماؤهم بالنظر في الكون نظرا مؤسسا على أنه لا خالق ولا مدبر ولا إله ، وأبو الإيمان بما وراء الطبيعة.

١- (الحركية الفكرية ضد الإسلام) د. بركات دويدار ، ص ٢١٠ ، دار التراث العربي ط٢ ، ١٩٨٠م. وانظر لتحريف الدين وتشويهه (قصة الحضارة) مجلد ٣ جـ٣ ص ٢٧٥ . (المسيحية نشأتها وتطورها) شارل جنيبر ترجمة د. عبدالحليم محمود ، المكتبة العصرية بيروت. (إظهار الحق) جـ١ ، ص ٣٣٧ ، دار التراث ، ١٩٧٨م.

يقول أبو الحسن الندوى موضحا افتضاح المادية على العقلية الأوروبية وجحدها للإله : (ولكن رجال النهضة الأوروبية ظلوا قرونا يجمعون بين النظر المادى الجاحد والحياة المادية ، والطقوس الدينية المسيحية ، بالتقليد أو بتأثير المحيط الذى لا يزال فى العالم النصرانى أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقتضى البقاء ولو بالاسم على نظام دينى يؤلف بين أفراد الأمة - الأوروبية - ويحفظها من الفوضى ، حتى افتضحوا أخيرا وصعب الجمع بينهما بسرعة سير الحضارة المادية ، وتخلف الدين والتقاليد وعجزها عن مسايرتها ، وما الجمع بينهما من متاعب وضياع الوقت وتكلف هم فى غنى عنه ، ومن ثم نهض الكتاب والمعلمون وغيرهم فى كل ناحية من نواحى أوروبا ينفخون فى صور المادية ، وينفثون بأقلامهم سمومها فى عقل الجمهور وقلبه .. حتى طغت وسادت وعمت البقاع فى شتى أنحاء أوروبا ، حتى أصبح دين أوروبا اليوم الذى يملك القلوب والمشاعر ويحكم على الروح هو المادية لا النصرانية ، ويعلم ذلك كل من عرف واتصل عن كثب وكتب بالأوروبيين ولم يتخدع بالمظاهر الدينية التى انخدع بها الجاهلون » (١).

وعبر أحد الصحفيين الأمريكيين عن هذه الحالة المادية الطاغية النفسية الأوروبية فى كتابه فى « داخل أوروبا » بقوله : إن الانجليز إنما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام فى الأسبوع ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة » (٢).

*** الاثر الثالث : بطلان الحاسة الدينية فى قلوب الغربيين :**

لقد كان جنوح العقلية الأوروبية إلى المادية الطاغية وانحرافهم عن الروحانية كان له أكبر الأثر فى فقدانهم للحاسة الدينية ، وعن فقد الحاسة الدينية

١- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٩٠ - ١٩٩ . (الإسلام على مفترق الطرق) محمد أسد ، ص ٤٠ .

٢- نقلا من المرجع السابق ص ٢٠٣.

لطارئ مؤثر أو حرمها لنقص فى فطرته بطلت نتائجها الخاصة بها ، وانعدمت فى حقه ، بحيث لا يستطيع أن يتصورها أو يصدقها ، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية ، وقد يعاند ويكابر فى إنكارها ، وشأن الأصم الذى ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده ، وليس بها داع أو مجيب.

كذلك الشأن من حرم الحاسة الدينية جحد الغيب ، وكابر فيما هو وراء الطبيعة ، وعاند فى المعالم الدينية ، وقسا على الرقائق والقوارع التى تهز النفوس وترقق القلوب ، فالذين تحجرت قلوبهم وماتت نفوسهم فى مسألة الدين، وآلوا على أنفسهم أنهم لا يفكرون فى أمر الدين والآخرة ولا يلقون السمع للروحانية الآلية ، وأقفلت الحياة المادية ومسائلها جميع أبوابها ، وسدت جميع نوافذ فكرهم ، هم أولئك الذين فقدوا الحاسة الدينية ، وآثروا الدنيا بالآخرة ، ولا تجد أمة من الأمم أترقت فى هذا المجال إلا الحضارة الأوروبية والنهضة الغربية - كما زعموها - وكان هذا ناجم من فقدانهم للدين الإلهى وصوت الفطرة واتباعهم أساطير وخرافات وثنية موروثة . (١)

* الأثر الرابع : زوال العاطفة الدينية من الكيان الأوروبى:

لما ارتفعت قيمة المال فى عيون الرجل الأوروبى وبلغ من الأهمية والمكانة مبلغا لم يبلغه فى دور من أدوار التاريخ المدون ، وأصبح المال هو الروح السادى فى جسم المجتمع الأوروبى ، والحافز للناس على أعمالهم ونشاطهم المدنى ، كما أصبح القطب الذى تدور حوله رحى الحياة العصرية كما يقول الأستاذ « جود » معلم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن : إن النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هى النظرية الاقتصادية ، وأصبح البطن أو الجيب ميزانا لكل مسألة فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعنون بها » (٢)، زالت

١- (ماذا خسر العالم ..) ، ص ٢٥٠ - ٢٥٤.

٢- نقلا من (ماذا خسر العالم ...) ص ٢٦٤ بتصرف.

العاطفة الدينية من قلب الرجل الأوروبى ، وأصبح لا يملك لا فى نفسه وقلبه أى عاطفة دينية ، بل عشش فى كيانه حب المادة حتى عشقها وأصبحت هى دينه ومعتقده .

وخير ما يعضد هذه النظرة ما صوره العالم النصرانى «ليكى» الحالة المتردية التى أصبح عليها الرجل الأوروبى - وخاصة رجل الدين الكنسى - وتأرجحه بين الرهبانية العاتية وحياة المادية الجامحة . إنه يقول : « إن المدن التى ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته » [1] ، وشقيت أوروبا بالفساد والفجور الذى انتاب ساحتها فضلا عن طغيان رجال الدين الكنسى على الحياة الأوروبية بأسرها أضعف هذا كله من ربقة الدين الذى تدعوا إليه الكنيسة وجنح إلى المادية.

* الأثر الخامس : عجز رجال الدين الكنسى عن تعديل المادية الجامحة :

لا يتوهم أحد أن حياة الرهبنة التى ابتدعها رجال الكهنوت فى دينهم - كما يقول أبو الحسن الندوى [2] - قد عدلت من شره المادية الرومية ، وكبحت من جماحها وغلوائها ، والذى يُوجد الاعتدال ويخفض من المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحى الدينى الذى يوافق الفطرة الإنسانية ، أما النصرانية الوثنية الوضعية قد حاولت تغيير نفسية الأوروبى ، فباءت بالفشل والخيبة لأنها جاءت بنظام لا تستسيغه الفطر السليمة ، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به فرغبت به كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة ثم تخلصت منه وثارت عليه ولم تقدر النصرانية الرومية بإسرافها فى الرهبنة والزهد ،

١- المرجع السابق ، ص ١٩٠.

٢- المرجع السابق ، ص ١٨٨ - ١٩٠ بتصرف.

ومكابرتها للفطرة والواقع أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم ، وتمنع تردي وسقوط مدنيتها وحضارتها المزعومة ، مما أفقد الدين الكنسي هيمنته وقداسته في نظر الرجل الأوروبي وغلب عليه الطابع المادي الجامح.

*** الأثر السادس : انتشار كافة العلل ، البدنية والعقلية والنفسية ، في البيئة الأوروبية :**

إن فقدان الحاسة الدينية يعرض الإنسان لشتى العلل والأمراض البدنية والعقلية والنفسية ، ومن ثم كانت البيئة الأوروبية ، والساحة الغربية مرتعا خصبا لهذه الأمراض مجتمعة ، وليس أدل على ذلك من أقوال علمائهم ومفكريهم بمختلف تخصصاتهم ، والإيمان علاج للقلق والاكتئاب والضجر واليأس وسائر النوازل والابتلاءات التي تعتري الكيان الإنساني ، فها هو « ديل كارنيجي» يصرح : إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي ، والاستمساك بالدين والصلاة كفيلة بأن تقهر المخاوف والقلق والتوتر العصبي وأن تشفي أكثر من نصف الأمراض التي تشكوها.

ويقول ا.ا. بريل : إن المرء المتدين حقا لا يعاني مرضا نفسيا قط ، وإن علماء النفس وأطباء « ليسوا إلا وعاظا من نوع جديد فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين توقيا لعذاب الجحيم في الدار الآخرة - فحسب - وإنما توقيا للجحيم المنصوب في هذه الحياة الدنيا ، جحيم قرحات المعدة والانهيار العصبي والجنون ... الخ.

ويقول - الدكتور كارل يونج - أعظم أطباء النفس بأمريكا في كتابه (الرجل العصري يبحث عن روح) : وهاهو هنري لنك الذي عاد إلى الإيمان عن طريق التجربة والعلم ، هذا الرجل - ككثيرين غيره - حين كفر وألحد ، لم يكفر بدين الله الحق ، وإنما كفر بالتحريفات التي أضيفت إليه ، وما ابتدع فيه ، وحين آمن وعاد إلى الدين لم يعد إلى الدين الذي أنكره من قبل بل عاد إلى دين

الفطرة ، ولو أتيح للرجل – ولغيره من سائر العلماء الأوربيين – أن يعرف الإسلام على بصيرة لأيقن أن الدين الذي اهتدى إليه وأعلن عودته لحظيرته إنما هو دين الإسلام (دين الفطرة والعقل والحياة والقوة) ومن أقواله :

- (إن كل من يعتنق دينا أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل مما لا دين له أو لا يزاول أية عبادة) .

- (الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة ، هذه القوة هي قوة الله ، وهو الاقتناع بالدستور الإلهي الذي سنه الله في كتبه المتعاقبة ، واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية وهي أسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة) [1].

ويقول « بريل كارنيجي » : إن الحياة متاهة مضلة وصحراء قاحلة مهلكة بغير واحة الإيمان .

« إنني يهمني ما يسديه إلى الدين من النعم تماما كما تهمني النعم التي تسديها إليها الكهرباء والغذاء الجيد ، والماء النقي ، فهذه تعيننا على أن نحيا حياة ، لكن الدين يسدي إلى أكثر من هذا ، إنه يمدني بالمتعة الروحية ، أو هو يمدني – على حد قول « وليم جيمس » – بدافع قوي لمواصلة الحياة الحافلة الرحبة السعيدة الراضية ، إني يمدني بالإيمان والأمل والشجاعة ويقضي عنا المخاوف والاكتئاب والقلق ، ويزودني بأهداف وغايات في الحياة ، ويفسح أمامي آفاق الحياة السعيدة ، ويعينني على خلق واحة خصبة وسط صحراء حياتنا .

ومن أقوال الفيلسوف « فرانسيس بيكون » : إن قليلا من الفلسفة يجنح بالعقل إلى الإلحاد ، ولكن التعمق في الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين .

١- نقول من كتاب (العودة إلى الإيمان) ص ٢٣ – ٢٦ بتصرف يسير.

ومن أقوال « وليم جيمس » :

« إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه تحققت كل أمنياتنا وآمالنا ».

« الإيمان من القوى التى لابد من توافرها ، لمعاونة المرء على العيش ، وفقدها نذير بالعجز من معاناة الحياة ».

« إن أعظم علاج للقلق ولاشك هو الإيمان » (١).

* الأثر السابع : ذيوع الضجر واليأس والانتحار فى الوسط الأوروبى :

لما ضعف الوازع الدينى ، وفقدت العقلية الأوروبية حاستها الدينية نتيجة عجز الدين الكنسى الوثنى المشبوه من استمالة النفوس ، وجذب القلوب ، ولما فقد الغربى الرغبة فى الخير والإصلاح ، ولما ضيع الغربيون أصول معتقدهم ومبادئ دينهم ، وزاغت قلوبهم وانحرفت ، واعتلت أذواقهم ، لم تزدهم العلوم والمخترعات - والتقدم التكنولوجى - إلا ضررا وقوة وسرعة فى الإهلاك واستعانة على الانتحار .

وقد صور هذه الحالة المتردية الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى كتابه (تنقيحات) قائلا : « والحاصل أن البذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوروبا فى نهضتها لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ولكنها سامة ، أزهارها جميلة ولكنها شائكة ، وفروعها مخضرة ولكنها تنفث غازاً ساماً لا يرى ولكنه يسمم دم البشر.

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها ، وأصبحوا يتذمرون منها لأنها خلقت فى كل ناحية من نواحى حياتهم مشاكل وعقدا لا

١- نقول من (الإيمان والحياة) د. يوسف القرضاوى ، ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة ، ولا يفصلون فرعا من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الداء بالداء ، وناقش الشوكة بالشوكة ، إنهم حاربوا الرأسمالية فنجمت الشيوعية ، وحاولوا استئصال الديمقراطية فنبعت الدكتاتورية ، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية فاشرأبت حركة العصيان والجناية فلا ينتهى شر إلا إلى شر أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم مصائب وشرورا حتى صارت الحياة الأوروبية جسدا مقروحا ، يشكو كل جزء منه أوجاعا وآلاما ، وأعيا الداء الأطباء ، واتسع الخرق على الراقع ، الأمم الغربية تتململ ألما ، قلوبها مضطربة ، وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة ، إن الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب فى فروع هذه الشجرة فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيعون أوقاتهم فى قطعها ، أنهم لا يعلمون أن منبع الفساد فى أصل الشجرة ، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد وفيهم جماعة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ولكنهم لما نشأوا قرونا فى ظل هذه الشجرة - وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم - كانت أذهانهم من أن يعتقدوا أصلا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعا وأوراقا صالحة سليمة ، وكلا الفريقين فى النتيجة سواء ، إنهم يتطلبون شيئا يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه » (١).

١- (تنقيحات) فصل أمم العصر المريضة ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، كلاهم يعلمونه و « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» سورة البقرة الآية (١٤٦ ، ١٤٧).

* الأثر الثامن : رزايا الإنسانية فى تحريف الفكر الأوروبى واضطرابه :

لقد خسرت الإنسانية جمعاء بانحطاط المسلمين واستيلاء الفكر الأوروبى عليها بالتبعية والسيطرة والنفوذ رزايا أوقعت الإنسانية فى الهاوية وتلك رزية لا تقبل العزاء ، وكسر لا ينجبر ، ورغم تخبط الفكر الأوروبى فى شتى مناحى الحياة ، ورغم انكشاف هويته ، وجلاء اضطرابه ، إلا أن الإنسانية - إلا من عصمه الله تعالى - قد انخدعت ببريق الحضارة الغربية ، وسرت فى هذا السراب الخادع والمخادع ، وهوت فى الحضيض بسبب هذا التقليد الأعمى الذى انقادت إليه ، وكان من نتاج هذا كله أن فقدت الإنسانية حاستها الدينية ، كما زالت عاطفتها الدينية ، وطغت المادية الجامحة على نفوسهم وقلوبهم ، وتدهورت القيم الأخلاقية فى ظل هذه التبعية الشيطانية ، وأصبحت ساحتها مرتعا خصبا لتفشى العلل والأمراض البدنية والعقلية والنفسية ، وتحول الإنسان - التابع للفكر الوضعى - إلى مادية جامحة ، ونتاج آلى جارف فى صباحه ، وحيوان هائج فى ليله يبحث عن المتاع الحسى الغليظ ، وتلك نهاية طبيعية لكل من حاد عن الفطرة ، وانحرف وبعد عن الدين الإلهى.

ولما كان الإنسان متدين بطبيعته وفطرته ، فهو - أيضا - عابد بسجيته ، ولا يمكنك أن تحوله من الدين إلى اللادين ، ومن العبادة إلى اللاعبادة ، إلا إذا كان هذا التدين ، وتلك العبادة قائمة على أسس واهية ، ودعائم باطلة من نتاج الفكر الوضعى الموسوم بالقصور ، ومن ثم تعددت سبل الذين حادوا عن فطرة الله تعالى وتنوعت وتشعبت طرقهم فضلوا وأضلوا.

* الاثر التاسع : دعوة المنصفين من الاوروبين للدين الإلهى الحق[1] :

أفلت شمس الحضارة الغربية ، وغاب صوت الفطرة عن بيئتهم ، حتى وجدتهم صرعى العلل والأمراض بسبب فزع الميدان الأوروبى كله من الدين - رغم سيطرة ونفوذ أوروبا على العالم بأسره بقوتها الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية والسياسية - ولو كان الدين سبيل النجاة بالنسبة لهم ، فانسلخوا من دينهم ، عسى أن يجدوا البديل عنه ، فأرقعهم سعيهم فى الهلاك والوبار ، والفساد والخسران مما دفع منصفيهم برفع صيحاتهم فى أجواء أوروبا بأسرها ، معلنين بالنذير الفطرى المكنون فى نفوسهم - وإن لم يصرحوا بإيمانهم به علانية- وبسوء مصير البشرية فى ظل الحضارة المادية الخاوية من الإيمان خواءها من الروح الإنسانى.

منهم الفليسوف الإنجليزى المعاصر (برتر اندرسل) قال فى تصريح له :

« لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض ... وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة - بدلا من السنن الإلهية - واعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون »[2].

وقال جويد فوستر دالاس - وزير خارجية أمريكا سابقا فى كتاب (حرب أم سلام) :

« إن هناك شيئا ما يسير بشكل خاطئ فى أمتنا ، والإلمام أصبحنا فى هذا الحرج وفى هذه الحالة النفسية ، ولا يجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا ، وأن

١- أنظر (الدعوة الإسلامية فى نظر المنصفين من مفكرى الغرب) مقال للباحث بحولية الكلية ١٩٩٥م.

٢- (المستقبل لهذا الدين) ص ٤٧ ، ٤٨ بتصرف يسير.

يتملكنا الذعر إن ذلك أمر جديد فى تاريخنا ، أن الأمر لا يتعلق بالماديات فلدينا انتاج علمى فى الأشياء المادية ، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوى ، فبدونه يكون مالدينا قليلا ، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها ، فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية فإن النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا .

وفى بلادنا الأوروبية لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحى اللازم للدفاع عنها، وهناك حيرة فى عقول الناس ، وتآكل لأرواحهم ، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادى ، ولن تستطيع أى إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا فى هذه الظروف ... ويبدو أن كثيرا من البلاد بما فى ذلك الدول المسيحية الغربية تعطى الأولوية لتنمية الحياة المادية للمجتمع ، وتجعل من الروحية أمر ثانويا يتعلق بالأفراد أنفسهم .. إن الصعوبة ناشئة من أننا نقف موقفا غامضا من إيماننا ، ومن العلاقة التى بين هذا الإيمان ونشاطنا .. وتقدمنا المادى ومبالغتنا فيه قد أفلسنا من الناحية الروحية ... ونتيجة لسوء حالتنا الإجتماعية -وغيرها- فإن قومنا قد فقدوا إيمانهم فى مجتمع حر ، وكأمة فقدنا كذلك إيماننا الدينى وممارسة شعائرنا الدينية ، إننا نفرق بين الدين وممارسة الدين ، ولم نعد نؤمن بأن الإيمان يتمشى مع الظروف الحديثة ، ومتى تحطمت الصلة بين الإيمان والعمل فلن نستطيع بعد ذلك أن ننمى قوة روحية نستطيع نشرها فى جميع أنحاء العالم » (١).

وكتب الرئيس ولسون قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالا استعرض فيه تهديد المبادئ الثورية وأعمال الشيوعية وختمه بقوله : إن اختصار المسألة بأسرها هو

١- نقلا من (المستقبل لهذا الدين) ص ٦٧ - ٧٣ بتصرف.

مايلى : إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار فى البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها » (١).

هذه بعض النماذج التى تعالت بصيحاتها تنذر بخطر المادية الجارف فى ساحة الميدان الأوروبى معلنة أن تعود إلى المخلص الذى يخلصها مما انتابها من تخبط فكرى فى كافة مناحيها العلمية والعملية ، وعلى من ينسجون منوال الحضارة الغربية ، ووقعوا فريسة لزخرفها ، ألا ينخدعوا بهذه البريق الخادع ، والمظهر الكاذب ، ويولوا وجههم شطر دين الفطرة التى فطر الله تعالى الناس جميعا عليها ، ويعلنوها صيحة صريحة مدوية « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ .. » (٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

دكتور

مرسى شعبان السويدى

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بالكلية

١- المرجع السابق ص ٧٣.

٢- سورة الأنعام الآيات من (١٦١ - ١٦٣).

ثبت بأهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- أخطاء المنهج الغربى الوافد ، أنور الجندى ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٧٤م.
٣- أصول التاريخ الأوروبى الحديث ، هـ. فشر ، ترجمة زينب عصمت راشد وآخر، دار المعارف ، ١٩٦٥م.
٤- اظهار الحق ، الشيخ رحمت الله الهندى تحقيق د. أحمد السقا ، دار التراث العربى ، ١٩٧٨م.
٥- آلهة فى الأسواق ، د. رؤوف شلبى ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، ١٩٨٤م.
٦- أوروبا العصور الوسطى ، د. سعيد عبدالفتاح عاشور ، جزآن مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥م.
٧- البابوية وسيطرتها على الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى ، د. أحمد على عجيبة ، مقال بحولية أصول الدين طنطا ، ١٩٩١م.
٨- الحركة الفكرية ضد الإسلام أحداقها ومقاومتها ، د. بركات عبدالفتاح دويدار ، دار التراث العربى ، ١٩٨٠م.
٩- الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ، د. محمود جب الله ، ١٩٨٠.
١٠- الدين ، د. عبدالله دراز ، دار القلم ، ١٩٨٠م.
١١- الرهبانية المسيحية وموقف الإسلام منها ، د. أحمد على عجيبة ، مقال بحولية أصول الدين طنطا ، ١٩٩٠م.
١٢- العقل والدين ، وليم جيمس ترجمة د. محمود جب الله ، ١٩٤٨م.
١٣- العودة إلى الإيمان ، هنرى لنك ، دار المعارف ، ١٩٤٨م.
١٤- المجامع المسيحية وأثرها فى النصرانية ، د. محمد رجب الشتيوى ، مطبعة التقدم ، ١٩٨٨م.

١٥- المسيحية فى العصور الوسطى ، د. جاد المنفلوطى ، جـ٢ ، دار التأليف والنشر ، ١٩٧٧م.
١٦- المسيحية نشأتها وتطورها ، شارل جنيبير ترجمة د. عبدالحليم محمود ، المكتبة العصرية .
١٧- المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، دار الشروق ، ١٩٨٩م.
١٨- الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، د. اسحق عبيد ، دار المعارف، ١٩٧٢م.
١٩- الإيمان والحياة ، د. يوسف القرضاوتى ، مكتبة وهبه ، ١٩٧٧م.
٢٠- بين الديانات والحضارات ، طه المدور ، ١٩٥٦م.
٢١- تأثر المسيحية بالأديان الوضعية ، د. أحمد على عجيبة ، رسالة العالمية مخطوط بكلية أصول الدين طنطا.
٢٢- تاريخ الأقباط ، د. زكى شنوده ، لجنة التاريخ والنشر ، ١٩٦٢.
٢٣- تاريخ الكنيسة ، چون لوريمر ، دار الثقافة .
٢٤- تاريخ الكنيسة ، يوسا بيوس القيصرى ، مكتبة المحبة ، ١٩٧٩م.
٢٥- تاريخ أوروبا العصور الوسطى هـ.ا.ل. فشر ترجمة محمد مصطفى زيادة ،آخرون ، دار المعارف ، ١٩٧٦م.
٢٦- تكوين أوروبا ، كرستوفر دوس ترجمة محمد مصطفى زيادة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٧م.
٢٧- دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى ، دار المعرفة ، ١٩٧١م.
٢٨- دراسات فى الأديان الوثنية القديمة ، د. أحمد على عجيبة ، دار المنار ، ١٩٩١م.
٢٩- دراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، د. چوزيف نسيم يوسف ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٣م.
٣٠- رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية ، د. محمود محمد الحويرى ، دار المعارف ، ١٩٨١م.

٣١- صلة العلم بالمجتمع ، ج.ج. كراودز ترجمة حسن خطاب ، النهضة العربية سلسلة الألف كتاب.
٣٢- فى العقائد والأديان، د. محمد جابر عبدالعال ، ١٩٧١م.
٣٣- فى الدين المقارن ، د. محمد كمال جعفر ، ١٩٧٠م.
٣٤- قصة الحضارة ، و.ل. ديورانت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٣٥- قصة الصراع بين الدين والفلسفة ، د. توفيق رزق الطويل ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧م.
٣٦- قصة الاضطهاد الدينى ، د. توفيق رزق الطويل ، دار النهضة العربية، ١٩٦٨م.
٣٧- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ، دار القلم ، ١٩٧٧م.
٣٨- محاضرات فى النصرانية ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٦م.
٣٩- محاكم التفتيش نشأتها وتطورها ، د. اسحق عبيد ، دار المعارف ، ١٩٧٨م.
٤٠- مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ، ١٩٨٨م.
٤١- معالم تاريخ الانسانية ، ولز ترجمة عبدالعزيز توفيق ، لجنة التأليف والنشر، ١٩٧٢م.
٤٢- من معطيات الثقافة الإسلامية ودورها فى نهضة أوربا وحضارتها ، د. مرسى شعبان السويدى ، مقال بحولية ، ١٩٩٤م.
٤٣- منبعا الأخلاق والدين ، هنرى برجسون ، ترجمة سامى الدرونى وآخرون ، ١٩٧١م.
٤٤- يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ، د. رؤوف شلبى ، مكتبة الأزهر ، ١٩٧٤م.
٤٥- ومراجع أخرى ذكرت فى هامش البحث.